كتابة التقارير والتحقيقات الصحفية الاستقصائية

"صورة المراسل الصحفي التي تظهره على شكل شخص دونكشوتي، مدمن على النيكوتين، والكحول، يلوح في مبنى البلدية بفضيحة خرجت لتوها من الآلة الكاتبة.. مازالت متشبثة بالأذهان بالرغم من الأدلة الوفيرة التي تثبت العكس".

بول غري

هنالك مذهب صحفي يستهزئ ويستخف بما يدعى "التقرير الاستقصائي"، ولا يقبل حتى بوجوده. حيث يقدم الحجة على أن العبارة خالية من المعنى، نظرا لأن التقارير الصحفية جميعها تحقيقات استقصائية. نتمنى لو كان ذلك صحيحا. لكن بعض التقارير استقصائية فقط في المعنى الأساسي للكلمة. وتعتبر المعادل الصحفي للمخلوقات وحيدة الخلية، ولا تزيد أوجه الشبه التي تجمعها بموضوع هذا الفصل عن تلك التي تجمع الكائنات وحيدة الخلية بالبشر.

ما هو التقرير الاستقصائي؟

التقرير الاستقصائي شكل مختلف اختلافا بينا عن الأنواع الأخرى. هنالك أربعة ملامح تميزه:

بحث أصيل

التقرير الاستقصائي ليس موجزا أو تجميعا لما توصل إليه الآخرون من نتائج ومعلومات ومعطيات، لكنه بحث أصيل يقوم به الصحفيون غالبا باستخدام المادة الخام. ويمكن أن يكون مقابلة شاملة، أو مطابقة ومقارنة للحقائق والأرقام، واكتشاف أنماط وصلات لم تكن معروفة سابقا.

يشمل الموضوع الخطأ أو الإهمال اللذين لم ينشر حولهما دليل دامغ.

كثيرا ما تراودك الشكوك بارتكاب خطأ أو وجود إهمال لكنك تفتقد الدليل، مثلك مثل غيرك. لذلك، أنت بحاجة لمراكمة الأدلة والبينات، وهذا يتطلب مزيدا من الوقت والجهد الدؤوب مقارنة بما تحتاجه كتابة التقرير العادي. ولربما يستدعي ذلك أيضا مشاركة أكثر من مراسل واحد.

بعضهم يحاول إبقاء المعلومات سرية

ينطبق ذلك على العديد من التقارير الصحفية، لكن في العمل اليومي هنالك نقطة يتوجب عليك عندها التوقف وكتابة تقرير حول ما وجدته (أو لم تجده). كتابة التقرير الصحفي الاستقصائي تبدأ من النقطة التي يتوقف فيها العمل اليومي. وهي لا تقبل السرية ولا رفض المسؤولين تقديم المعلومات. بل تقوم بعملية سبر واستكشاف.

الرهان مرتفع وحجم المخاطرة كبير

ما تحصل عليه من مجد وعز عندما تنجح القصة قد يكون عظيما، بقدر الضرر الذي يلحق بسمعتك حين تفشل. لنفكر مثلا بتجربة صحيفة "سينسيناتي انكوايرر" عام 1998. ففي شهر أيار/ مايو من تلك السنة نشرت الصحيفة على صدر صفحتها الأولى تحقيقا استقصائيا حول شركة الموز العالمية "تشيكيتا براندز"، إضافة إلى قسم من ثماني عشرة صفحة حول هذا التحقيق الذي تطلب إجراؤه سنة كاملة. تحت العنوان الرئيس "افتضاح أسرار

تشيكيتا"، زعمت الصحيفة أن الشركة سيطرت سرا على عشرات من شركات الموز المستقلة كما هو مفترض، وأنها استخدمت مع الشركات التابعة لها مبيدات حشرية هددت صحة العمال والسكان المقيمين في الجوار، وأن الموظفين تورطوا في قضايا رشوة في كولومبيا، وأن سفنها هربت الكوكايين إلى أوروبا.

لكن كل ذلك لم يكن صحيحا كما بدا تماما. ففي عدد الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو، نشرت الصحيفة اعتذارا إلى الشركة على ستة أعمدة في صدر صفحتها الأولى، "تستنكر فيه التحقيق وتتبرأ منه كلية". كما طردت كبير مراسلي التحقيقات ووافقت على دفع مبلغ لا يقل عن عشرة ملايين دولار كتعويض للشركة.

لم تكن المشكلة صحة وصدق الدليل (أو كذبه وزوره)، بل الأساليب المستخدمة للحصول عليه. وهذه شملت الوصول إلى رسائل البريد الصوتي للشركة. أما القضية فهي كيفية الوصول. زعمت الشركة أن المراسل طرح أسئلة ثم تسلل إلى صناديق بريدها وتنصت على مناقشاتها الداخلية حول القضايا التي أثارها. وبدت الصحيفة، في اعتذارها وحل المسألة، أنها تقبل بهذه المزاعم. وفي بيان منشور، قالت إن المراسل قد ضللها حول مصدر رسائل البريد الصوتي. لكن لم يتضح أبدا ما إذا كان هناك أي أساس للقصص المنشورة.

فقدان المصداقية، إضافة إلى الملايين العشرة من الدولارات، جعل التحقيق باهظ الثمن. ولحسن الحظ، لا تصادف جميع القصص المشابهة مثل هذا المصير، بدءا من كشف نيللي بلاي للظروف المرعبة داخل مستشفيات الأمراض العقلية ("نيويورك وورلد")، وفضح و. تي. ستيد لدعارة الأطفال ("بول مول غازيت")، ونزع رونالد توماس القناع عن العنصرية العنيفة لمنظمة "كو كلوكس كلان" ("نيويورك وورلد")؛ مرورا بكشف سيمور هيرش عن ملابسات مذبحة ماي لاي عام 1968؛ وانتهاء بحملة "صنداي تايمز" لصالح

الضحايا الذين فقدوا أطرافهم بسبب عقار "الثاليدوميد"؛ وتحقيق كارل بيرنستاين وبوب ودوارد الذي أدى إلى فضيحة "ووترغيت" ("واشنطن بوست")، إضافة إلى العديد من القصص المحلية التي فضحت حالات الإهمال وغيرت حياة الناس نحو الأفضل. المثال التقليدي هنا يجسده تحقيق "الاباما جورنال" في سجل وفيات الولدان (الأطفال الرضع) في الولاية عام 1987: 13 وفاة من بين كل 1000، وهو المعدل الأسوأ في جميع الولايات الأمريكية. نشرت الصحيفة سلسلة من عشرين حلقة أدت إلى مضاعفة وكالة "ستيت ميديك ايد" تمويل برامج الأمومة لفترة ما قبل الولادة بمقدار أربع مرات، وإلى ظهور دافع قوي لتحسين خدمات الرعاية الصحية للأمهات الفقيرات. وبحلول عام 1994، انخفض معدل وفيات الولدان في ولاية الاباما بنسبة 20٪. وبحلول نهاية القرن، كان في الولاية ألف طفل يدينون بفضل وجودهم ذاته إلى تلك السلسلة. ومن الصعب تخيل تحقيق صحفي يمكن أن يعطي نتائج إيجابية أفضل.

أخيرا، يمكن أن تشمل المخاطرة حتى سلامتك الشخصية. ففي البلدان التي تنتشر فيها الجريمة المنظمة، تعتبر كتابة التقارير والتحقيقات الصحفية الاستقصائية مهنة خطيرة بل حتى مميتة. في روسيا مثلا، كان ديمتري خولدوف، مراسل صحيفة "موسكوفيسكي كومسوليتس" يكتب تحقيقا صحفيا حول الفساد في الجيش. اتصل به مصدر مجهول في أحد أيام خريف عام 1994 وقال إن حقيبة من الوثائق قد تركت له في محطة كازان. ذهب المراسل إلى المحطة وأخذ الحقيبة وعاد إلى مكتبه. وحين فتحها انفجرت في وجهه وقتلته. وفي ربيع عام 1992، كان المراسل الصحفي البيروفي ادولفو ايسويزا اوركويا يحقق في قضية مخدرات لصالح صحيفة "لا ريبوبليكا". وفي شهر آب/ أغسطس ذكر اسم تاجر مخدرات كبير يتمتع بحماية القوات المسلحة. كتب يقول: "الجيش لا يريد مكافحة الإرهاب لأنه يعتاش على تهريب المخدرات". بعد بضعة أيام (8/27) وجدت جثته في نهر هوالاغا. وتبين أنه تعرض للتعذيب وطعن حتى الموت. من أجل كل ذلك، يجب على كل من يفكر

بالتنقيب في هذه المجالات أن يتوخى الحذر ويدرس احتمالات الخطر. فالمراسل الميت لا يمكن أن يكتب التقارير!

المجالات المثمرة التي تستحق الاستقصاء والتحقيق

تبدأ كتابة التقارير والتحقيقات الاستقصائية برائحة قصة تفوح من مكان ما، أو حدس يشير إلى موضوع يشكل بذرة لقصة. أما الأمر المهم في هذه المرحلة فهو التفكير بعناية حول النتيجة في "أفضل الحالات"، وهل تستحق القصة الجهد المبذول والوقت المطلوب. فإذا لم تكن تستحق النشر في صدر الصفحة الأولى، تجاهلها. وحدات التحقيق المتخصصة يمكنها بسهولة الانشغال بقصة أقل أهمية من أن تشغل عموم القراء. اخضع تحقيقك الذي تخطط له لاختبار العنوان الرئيس: إذا وجدت أن النتيجة المتوقعة لن تصنع عنوانا مثيرا ومذهلا، فأنت على الأرجح تضيع وقتك سدى.

من حيث الإمكانية الاحتمالية، يمكن للتحقيقات الصحفية الجيدة أن تتناول أي مجال من مجالات الحياة. لكن هناك فئتين واسعتين تعدان بنتائج مثمرة على وجه خاص: الأنشطة والمنظمات التي تؤدي عملها في أماكن نائية أو بعيدة عن أعين الجمهور؛ والشخصيات والمؤسسات التي تظهر فجأة تحت الأضواء الكاشفة، لتبدو وكأنها "أتت من المجهول"، وتنسج حولها بسرعة الحكايات والأساطير. إنها الشخصيات والمؤسسات التي ليست لها خلفية على ما يبدو. لكن في الحقيقة لها مثل هذه الخلفية، ومن المؤكد أن نعثر فيها على قصة صحفية جيدة ومثيرة.

الشركات والمؤسسات المالية، خصوصا تلك التي "اغتنت بين ليلة وضحاها"، تعتبر تربة على درجة كبيرة من الخصوبة بالنسبة للتنقيب الصحفي. جرب معولك في مشروع استثماري غير مألوف تلقى دعاية واسعة، ويمكنك أن تراهن على مرتبك بأنك ستجد فيه فضائح قذرة تكتب عنها. الصناديق المالية الهرمية في رومانيا في بداية تسعينات القرن العشرين مثال

معبر عن الفرصة الضائعة. أما الفرصة التي لم تهدر، وهي نموذج تقليدي لهذا النوع من التحقيقات الصحفية، فهي قصة تشارلز بونزي، أو "بونزي العظيم" كما يحب أن يدعو نفسه.

آمن به العديد من الناس. فقد أودع أكثر من أربعين ألف أمريكي مدخراتهم في مشروعه، بعد أن أغراهم تعهده بدفع 5.2 دولار مقابل كل دولار يستثمرونه بخلال تسعين يوما. وبالرغم من تحذيرات الخبراء الماليين من أن الفائدة التي يقدمها لا تبدو منطقية ولا معقولة، إلا أنه كان يجمع في إحدى الفترات من عام 1920 حوالي 200.000 دولار في اليوم. وبخلال ثمانية عشر شهرا جمع أكثر من 15 مليون دولار.

كان كل شيء يعتمد على معدلات صرف العملة. حيث تأخذ شركته استثمارات الأفراد وترسلها إلى خارج البلاد، ليقوم وكلاؤه بشراء كوبونات اتحاد البريد العالمي بأسعار منخفضة ومن ثم بيعها في مناطق أخرى بسعر أعلى. تلك كانت قصة بونزي، وشارك الآلاف في "الهجمة" المحمومة لكي تكسب استثماراتهم المال بسرعة أكبر من المعتاد. أما الحقيقة بالطبع فهي أنه كان يدفع للمستثمرين الجدد من مال المستثمرين القدامى. وتبين أن مبلغ العملة الأجنبية الذي تاجرت به الشركة طيلة حياتها لم يتجاوز 30 من أصل 15 مليون دولار.

لكن الناس الذين احتشدوا على الرصيف خارج مكاتبه، واصطفوا في رتل طويل طلبا لفرصة الاستثمار بكل ما يملكونه، لم يعرفوا تلك الحقيقة. وبدا أنه "اكتشف المال ذاته"، على حد تعبير أحد المستثمرين الطامحين. لكنه في الواقع لم يكتشف سوى أنك إن عرضت على الناس عائدا مغريا على أموالهم، ورفعت بعض الشعارات الزائفة، يمكنك تأجيل يوم الحساب زمنا طويلا.

لكن ليس إلى أجل غير مسمى؛ فقد اكتشف مراسلو صحيفة "بوسطن بوست" ماضيه. وتبين أن "بونزي العظيم" كان معروفا للسلطات في كندا باسم

"السجين رقم 5247"، وهو الرقم الذي حمله حين سجن بتهمة التزوير. كما سجن أيضا في أطلنطا بتهمة تهريب الأجانب. نشرت "بوسطن بوست" القصة، فانهارت شركة بونزي، وحكم عليه بالسجن أربع سنين.

مهارات كتابة التقارير والتحقيقات الاستقصائية

يمكن لكل من يملك العزيمة على إكمال مهمته ومواجهة الإحباطات المحتومة أن يكتب تحقيقا صحفيا. فكتابته لا تتطلب مهارات أعظم من تلك التي تحتاجها كتابة التقارير العادية. لكن هناك بعض المؤهلات التي تجعل العمل أسهل أداء وتجعلك أكثر كفاءة في هذا المجال.

معرفة القانون المتعلق بإتاحة المعلومات للجمهور

ما هو القانون السائد حول ذلك في بلدك؟ هل تعرف ما هي السجلات والوثائق العمومية التي يعطيك القانون الحق برؤيتها؟ هذا أمر حيوي ومهم. بعض التحقيقات نتجت عن وثائق سرية سلمت إلى الصحفيين، لكن العديد منها نتجت عن اكتشاف المراسلين أن بعض السجلات قد حفظت وأن لديهم الحق بالاطلاع عليها. معظم البيروقراطيين لا يعلنون بالضبط عن وجود مثل هذه المعلومات، ويقيمون كل أنواع الحواجز لمنع الناس من مراجعتها - وذلك عبر إتاحتها في أوقات معينة، أو تخزينها في أماكن يصعب الوصول إليها.

اكتشفت مراسلة عملت معي في لندن وجود سجل معين في حاشية لتقرير حكومي، عدّد حقوق دخول العقارات الخاصة التي منحت مقابل حصول الملاك الأثرياء على تنازلات ضريبية. لم يرغب المسؤولون (لأنهم قدموا التنازلات الضريبية) ولا الملاك (لأنهم لم يريدوا أن يتجول الجمهور في أملاكهم) بنشر هذا السجل.

وما إن علمت المراسلة بالسجل وتأكدت من حقنا بتفحصه، حتى بدأت العملية الطويلة لدراسته. ولم تكتف بعد ذلك بذكر ماذا تكسب هذه الأملاك

من إتاحة الدخول إليها، بل حققت في الصفقات التي عقدت بين الملاك والحكومة. وما كان بمقدور أحد القيام بذلك لولا اكتشافها السجل في المقام الأول وإصرارها على دراسته.

حدث ذلك في بريطانيا، التي اشتهرت بتشبثها بتقليد سرية الوثائق الرسمية. وهي ليست متفردة في ذلك، فهناك العديد من البلدان الأخرى التي تبنت الآن قوانين حرية المعلومات التي فتحت كما هائلا من السجلات أمام المواطنين. لكن قلة قليلة من الناس العاديين سيعلمون بهذه السجلات، ولن يراجعها إلا عدد محدود من هؤلاء. وهذا سبب آخر يدعو الصحافيين لمعرفة ما هو محفوظ من سجلات وما يمكن رؤيته منها.

في الولايات المتحدة، فتح قانون حرية المعلومات لعام 1966 (الذي دعم عام 1971) جميع أنواع الوثائق للصحافيين. ونتيجة لاستخدامها في التحقيقات الصحفية، كشفت الصحافة كل أنواع الفضائح:

- حوادث في المواقع والمفاعلات النووية لم يبلغ عنها.
- آلات أشعة اكس في مراكز الكشف عن السرطان كانت تطلق إشعاعات تتجاوز المعدل المسموح به بمقدار 25 - 30 مرة (بخلال أشهر معدودة من افتضاح القضية، قامت المراكز المشابهة في الولايات المتحدة بتخفيض كميات الإشعاع).
- إعطاء العقاقير المخدرة خلال الولادة حتى مع احتمال أن تسبب - وقد سببت فعلا - ضررا دماغيا للولدان.

هنالك أيضا تلك الصحيفة في لويزفيل (بولاية كنتكي) التي حصلت على تقارير التفتيش الفيدرالية حول دور العجزة، حيث أظهرت إساءة معاملة المقيمين. ونتيجة لذلك، صدر قانون تشريعي جديد في الولاية، وأغلقت العديد من الدور واتهم عدد من أصحابها بالتزوير.

الحالات التي يمكن الاستشهاد بها تنأى عن الحصر. وتظهر جميعا قيمة اكتشاف الصحفيين للسجلات المحفوظة، وتفحصها، واستخدامها في تحقيقاتهم.

معرفة المصادر المرجعية

تتوفر في المجتمعات كافة، باستثناء أشدها تمسكا بالسرية وحرصا على المحافظة على الأسرار، كمية من المعلومات تفوق ما يحسبه الصحفي العادي. ويمكن استقصاء الكثير منها من المصادر المرجعية العادية، وإن لم تكن متاحة للعموم: قوائم المطبوعات الرسمية، تقارير من المجالس التشريعية، لوائح الهيئات العامة، الكتب المرجعية الخاصة بملكية الشركات، سجلات المؤسسات والهيئات العامة، الكتب المرجعية الخاصة بالشركات، سجلات المؤسسات والهيئات التي تتلقى التمويل الحكومي. وعلى كل صحفي ينوي القيام بتحقيق استقصائي تركيز جهده على معرفة ما تحمله مثل هذه المصادر المرجعية من معلومات.

الصلات ومصادر المعلومات

من الواضح أن المراسلين كافة بحاجة إلى صلات ومصادر معلومات، لكن المراسلين الذين يكتبون تقارير وتحقيقات استقصائية بحاجة إليها أكثر من سواهم. إلا أن صلاتهم يجب أن تكون من نوع خاص - لا مجرد مصادر تزودهم بالمعلومات أو تدلهم على الوجهة الصحيحة حول قصة معينة، بل تفيدهم في معرفة المصادر المفيدة حول مجال ومدى القصص. يشمل هؤلاء المحامين، والمسؤولين في خدمات الهاتف، ومراكز تسجيل السيارات، وأولئك الذين يمكن أن يقدموا المشورة حول (ويتيحوا لهم الوصول إلى) السجلات الرسمية.

المعرفة بالكمبيوتر

لا تعني المعرفة هنا مجرد القدرة على البحث بشكل فعال على الشبكة الإلكترونية، بل المقدرة على استخدام برمجيات قواعد البيانات. الأمثلة على قيمة هذه المقدرة في التحقيقات الصحفية متوفرة الآن في كل مكان. ومن

أكثرها وضوحا وفائدة سلسلة المقالات التحليلية للتمييز العنصري في تقديم القروض المصرفية، التي نشرتها مجلة "أطلنطا جورنال - كونستيتيوشن" في جورجيا، وفازت بها بجائزة بوليتزر عام 1989.

هذا التحقيق الذي قام به بيل ديدمان، يستحق الدراسة: ليس لأن في موضوعه أي أهمية دلالية عالمية، بل لأنه بالضبط لا يحملها. فهو عبارة عن تقرير صحفي محلي (داخلي)، بالرغم من أنه يشكل مثالا نموذجيا وممتازا على نحو خاص. لم يسقط التقرير أي حكومة، ولا فضح فسادا جنائيا، ولا أنقذ أرواحا بريئة. ولربما يبدو بالنسبة لرجل (أبيض البشرة) يعيش في مكان بعيد عن الولايات المتحدة عديم الأهمية مقارنة بالمشكلات التي تواجه بلاده. لكن سلسلة المجلة تستحق الدراسة بسبب أساليبها، وتنظيمها، ومواقفها. إنها قصة صحفي صمم على نقل حقيقة ما يحدث ونشره أمام الناس، بدلا من التمني أو اجترار وتكرار الشائعات التي كان يسمعها.

بدأ التحقيق بملاحظة عفوية من مقاول "أبيض" يعمل في تطوير المناطق السكنية. فقد قال إنه يواجه مشكلة في بناء البيوت في مناطق السود في جنوب أطلنطا لأن المصارف لا تقدم القروض هناك (وهو أمر غير قانوني إذا كان لأسباب عنصرية). وأضاف أن من الصعب الحصول على القروض - كما قيل له - حتى في مناطق الميسورين من السود. وبدت الملاحظة مألوفة ومن النوع الذي يسمعه المراسلون كل يوم - عمومية، ولا أساس لها، ويستحيل إثباتها. لكنها استثارت فضول ديدمان، وأراد معرفة إمكانية إثبات التهمة بالبينة والدليل.

أولاً، تحدث إلى بعض الأكاديميين الذين عملوا في هذا الميدان، وأعلموه أن على المصارف، وشركات الادخار والقروض، أن تبلغ الحكومة بمكان كل قرض إسكاني، وحجمه، وإحصاء التركيبة السكانية للمجتمع المحلي في المنطقة. ومثلما كتب ديدمان فيما بعد: "كل ما فعلناه على الورق ببساطة هو

مقارنة فهارس الكمبيوتر الاتحادي مع شريط تسجيل الإحصاء الفيدرالي، مع تركيز البحث المقارن على الأحياء السكنية للسود والبيض". لكن التطبيق العملي لم يكن بسهولة الكلام النظري. فقد كرست الأيام الثلاثة الأولى بكليتها لوضع فراغات بين الأرقام على الكمبيوتر بحيث يمكن قراءتها بشكل صحيح.

قام ديدمان، طيلة الشهور الخمسة التالية، بتدقيق القروض المقدمة من كل مصرف وشركة ادخار في أطلنطا خلال خمس سنوات - وبلغ المجموع 109000 قرض. كما أجرى دراسة أخرى للسجلات العقارية. استحق الجهد المبذول العناء، فقد اكتشف أن المصارف وغيرها من المؤسسات تقدم قروضا لمناطق سكن البيض تفوق بمقدار خمس مرات تلك التي تقدمها لمناطق السود. وعبر تفحص واستقصاء السياسات والممارسات المصرفية، وجد أيضا أنها لا تسعى وراء الأعمال التجارية في مناطق السود أو كانت لا تشجع المقترضين السود. ولم يكن أمام هؤلاء بدورهم سوى اللجوء إلى شركات الرهون غير النظامية، أي "أسماك القرش" من المرابين الجشعين. يقول ديدمان: "عندها فقط عدت إلى الروايات". جمع العديد من التجارب الشخصية للسكان، الأمر الذي أضاف إلى سلسلة تحقيقاته لمسات تنبض بالحياة الواقعية، وأظهر مدى تأثير سياسات المصارف على الناس.

حين ذهب إلى المصارف، أحجم المسؤولون فيها - كما هو متوقع - عن الكلام. أجاب أحدهم على طلب ديدمان للحصول على المعلومات كالتالي: "بعض المعلومات التي طلبتها لا وجود لها. وبعضها الآخر موجود لكنه سري للغاية. أما البقية فهي موجودة وليست سرية لكنها غير ذات صلة بموضوعك". إنه بلا أدنى شك صوت المسؤول الذي يحاول أن يخفي شيئا. مصرف آخر حاول سرا اللجوء إلى المشاعر الوطنية المحلية، تحت قناع التماس رقيق طلب فيه من ناشر الصحيفة، جاي سميث، أن يوقف التحقيق في القضية. قال مسؤول المصرف في رسالته: "أنا متأكد من أن جاي سميث يدرك أن أي مقال

يتهم مؤسسات أطلنطا المالية بالتمييز العنصري، يعتبر طلقة طائشة أخرى توجه إلى صدر مدينتنا العظيمة..". وأرسل نسخة من الرسالة إلى الناشر.

أخيراً، وعندما امتلك ديدمان ما يكفي من المعلومات لكتابة السلسلة (بعنوان: "لون المال" بالاقتباس من اسم أحد أفلام هوليود الشهيرة)، تدخل رؤساء التحرير في القضية. ومثلما كتب لاحقا:

أعتقد بأنني أعرف مفتاح فعالية "لون المال". المحررون حذفوا الأجزاء الجيدة برأيي. وحين كتبت إن مصارف أطلنطا ترفض تقديم القروض لأسباب عنصرية، علق المحرر بيل كوفاتش قائلا: استخدم الأرقام فقط. ودع الحقائق تتحدث عن نفسها".

في يوم الأحد الأول من أيار/ مايو بدأت السلسلة بقصة من عدة آلاف من الكلمات تحت عنوان عريض: "السود في أطلنطا يخسرون في التنافس على الحصول على قروض الإسكان":

يحصل البيض من مصارف أطلنطا وشركات الادخار والإقراض على قروض تتجاوز بمقدار خمس مرات تلك المقدمة إلى السود من مستوى الدخل نفسه - والهوة تتسع كل سنة، مثلما أظهرت نتائج دراسة أجرتها مجلة "أطلنطا جورنال - كونستيتيوشن" على مبلغ 6.2 مليار دولار من القروض. العرق - لا قيمة المنزل أو دخل الأسرة - هو الذي يحدد باستمرار أنماط الإقراض في أضخم المؤسسات المالية في أطلنطا الكبرى، وذلك تبعا للدراسة التي استقصت ست سنوات من تقارير الإقراض المقدمة إلى الحكومة الاتحادية.

تتابعت فصول القصة لتضم ما يلي: تفسير وإنكار المسؤولين في المصارف، تفاصيل عملية المسح مع مزيد من الأخبار (بما في ذلك حقيقة أن المصرف الوحيد المتخصص في إقراض السود سجل أدنى معدل تخلف عن سداد أقساط القروض على مستوى البلاد بأسرها)، تفسير القانون المتعلق

بالقروض المصرفية.. الخ. ونشرت الصحيفة في مكان آخر من عدد ذلك اليوم قصة حول عدد من المواطنين السود المؤهلين تماما للحصول على القروض لكنهم واجهوا مشكلات حالت دون حصولهم عليها. أما بقية السلسلة فكانت كالتالي:

الاثنين 2/ 5: قصة مفصلة حول السياسات المصرفية، وتاريخ سياسة التمييز العنصري التي تبنتها، إضافة إلى تواريخ حالات تشمل أحد قدماء المحاربين في فيتنام الذي رفض طلبه بالحصول على قرض يخفض ما يدفعه من أجرة لبيته الحالي بمبلغ 100 دولار شهريا. فصلت المقالة أيضا عملية شراء البيوت وكيف تتصل بالمواطنين السود.

الثلاثاء 3/ 5: تفسير مفصل للقانون المتعلق بالمصارف وأنظمتها وممارساتها في مختلف أنحاء البلاد، إضافة إلى تاريخ الجهود والمساعي المبذولة من قبل جماعات السود لتغيير السياسات المصرفية في أطلنطا. هنالك أيضا مزيد من القصص التي تابعت تطورات القضية وأكدت أن التمييز العنصري يمارس على المستوى الوطني.

أحدثت سلسلة مقالات ديدمان نتائج فورية. فبعد تسعة أيام من نشرها، بدأت تسعة من أكبر مصارف أطلنطا ضخ 77 مليون دولار في القروض الميسرة المخصصة لمناطق السود. بعض المؤسسات الأخرى بحثت أيضا عن أعمال تجارية تمولها في مناطق السود، ووظفت مستخدمين منهم، ونشرت إعلاناتها في وسائل إعلامهم، بل قام مدراؤها التنفيذيون بجولة بالحافلات في الأحياء التي يسكنها السود. بعد أحد عشر شهرا من نشر السلسلة، بدأت وزارة العدل الأمريكية التحقيق مع 64 مؤسسة مالية في أطلنطا حول احتمال خرقها لقوانين مكافحة التمييز العنصري.

كيف تدير عمليات التحقيق

موضوعات التحقيقات تأتي إلى الصحف بطرائق شتى: معلومات سرية من المصادر؛ أو عن طريق الصدفة؛ أو قصة روتينية على ما يبدو تدل

المعلومات اللاحقة على أن فصولها أكبر وأوسع؛ أو مشاهدات للمراسل ذاته؛ أو قصة عادية تزداد إثارة رويدا رويدا، أو واحدة تثير أسئلة مهمة بعد كل سؤال تطرحه.

تلك هي الحالة التي جرت فيها ربما أشهر التحقيقات الصحفية على الإطلاق - ووترغيت. بدأت القضية في حزيران/ يونيو 1972 مع اقتحام مركز الحزب الديمقراطي في مبنى ووترغيت في واشنطن. وانتهت بعد حوالي سنتين باستقالة أقوى رجل على ظهر الأرض. الرئيس ريتشارد نيكسون. دور الرئيس وموظفيه في التنصت على الحزب الديمقراطي وغير ذلك من التصرفات غير القانونية (تسجيل المكالمات الهاتفية، وصناديق تمويل الرشاوى، والأهم من كل ذلك التستر على هذه الأنشطة غير القانونية) ما كان ليعرف لولا التحقيقات الاستقصائية التي أجراها كارل بيرنستاين وبوب ودوارد من صحيفة "واشنطن بوست".

حين شرع الاثنان في العمل على القصة، وسط حالة من الشك المتبادل، بدت لهما قصة جنائية روتينية: ألقي القبض على خمسة رجال بعد اقتحامهم مركز الحزب الديمقراطي لزرع أجهزة تنصت. ذهب ودوارد إلى المحكمة في اليوم التالي ولاحظ أن أحد كبار المحامين البارزين قد أبدى اهتماما شديدا بالقضية. ما الذي يفعله هناك؟ علم ودوارد في المحكمة أيضا أن عددا من المتهمين قد عملوا لصالح وكالة المخابرات المركزية. كما كانوا يحملون مبالغ مالية ضخمة عند اعتقالهم، وكان مع أحدهم دفتر ملاحظات يضم رقم هاتف رجل عمل في البيت الأبيض.

من هذه البدايات الضئيلة - لكن الواعدة - انطلقت سلسلة من التحقيقات التي ستثبت في نهاية المطاف تورط إدارة نيكسون في مجموعة كاملة من الأنشطة غير القانونية. استقبل إنجاز بيرنستاين وودوارد بالحفاوة والتكريم، وألف الاثنان كتابا شهد رواجا كبيرا، كما أنتجت هوليود فيلما

سينمائيا اعتمدت قصته على التحقيق الذي قاما به. لكن كل ذلك كان النتيجة النهائية. إذ مر كل منهما قبلها بألف حالة إحباط، وتعرض لسوء المعاملة والتعسف من قبل مؤيدي نيكسون ومسؤوليه الذي خافوا من التحقيق واشتبهوا به، علاوة على الأيام والأسابيع والشهور التي ضاعت في ملاحقة معلومات مزيفة، وأخطاء فادحة (وجد بعضها طريقه إلى النشر)، وساعات لا تحصى من البحث في السجلات سعيا وراء المعلومة المهمة، والشكوك الذاتية، وانتقاد وحسد الزملاء، والليالي والأيام (حتى في العطلات الرسمية) التي قضاها كل منهما في استقصاء القضية.

هنالك دروس مفيدة وعبر ثمينة يمكن أن تستخلص من تجاربهما وخبراتهما. ولربما يعتبر كتابهما "كل رجال الرئيس" أفضل وصف تفصيلي لكتابة التقرير الصحفي باللغة الإنكليزية. حيث يروي قصة مراسلين صحفيين يقتربان ببطء (وليس بالضرورة بخط مستقيم) نحو الحقيقة، من خلال بحث دؤوب ومرهق وتهوس إيجابي بالدقة والإتقان. الدلائل الإرشادية التالية حول كتابة التقارير والتحقيقات الاستقصائية تعتمد على عمل بيرنستاين وودوارد، ودراسة الحالات والقضايا الأخرى، وتجاربي الخاصة المحدودة:

ادرس واحفظ كل وثيقة

الحكمة في كل تحقيق تقوم به تدعوك إلى الحفاظ على كل وثيقة تضع يدك عليها وألا تلقي شيئا في سلة المهملات. فلن تعرف متى تصبح الوثائق والملاحظات والتقارير - وكل شيء تجمعه- مفيدا لك. ولربما تمضي شهور على حصولك على تقرير يبدو بريئا في الظاهر، قبل أن يحدث شيء يعطيه أهمية مفاجئة. ملأ بيرنستاين وودوارد، المراسلان الصحفيان اللذان كشفا فضيحة ووترغيت، أربع خزائن بالملفات بعد بضعة شهور من مباشرة العمل على القضية.

دوّن كل مقابلة تجريها واحفظ الملاحظات

هذا مهم إذا كنت تشارك مراسلين آخرين في كتابة تحقيق صحفي، أو إذا كان تحقيقا مطولا ومسهبا. من المفيد تبادل ملاحظات المقابلات لمعرفة هل أغفلت معلومة مهمة. الملاحظات المطبوعة (والمحفوظة في ملف) أسهل وأسرع عند المراجعة. كما أن هذه الممارسة تتيح للمدراء والمحررين مشاركة أفضل في مناقشة القصة.

تشبث بالإلحاح والمثابرة

اقرأ قصة أي تحقيق صحفي ولسوف تفاجأ بإلحاح ودأب المراسلين. خلال التحقيق في قضية ووترغيت، أمضى ودوارد وبيرنستاين أياما طويلة في مراجعة السجلات، وإجراء الاتصالات الهاتفية من المكتب حتى في أيام العطلة، أو الانتظار خارج مكاتب المحامين طيلة اليوم من أجل لقاء مصدر مهم. في إحدى المناسبات، حصلا على قائمة بأسماء حوالي مائة شخص عملوا في لجنة إعادة انتخاب الرئيس، اللجنة التي ارتكبت فيها معظم الانتهاكات والأخطاء. ونظرا لعدم قدرتهما على زيارة هؤلاء في مكاتبهم، فقد أمضيا أسابيع عديدة يتصلان بهم في منازلهم بعد انتهاء الدوام في الصحيفة.

أعدْ مقابلة "المصادر القديمة"

طالما ظل التحقيق جاريا، لا يوجد شيء اسمه "مصدر قديم". فالأشخاص الذين يعملون في المجال الذي تحقق فيه سوف يتذكرون غالبا أشياء كان عليهم إبلاغك بها. وكل واحد من هؤلاء يعد سببا كافيا للاتصال به بانتظام. لقد احتفظ كل من ودوارد وبيرنستاين بلائحة منفصلة تضم أرقام هواتف المصادر، ليبلغ عدد الأشخاص في نهاية المطاف عدة مئات. وكان كل منهم يتلقى من المراسلين اتصالين هاتفين على الأقل أسبوعيا، طيلة أكثر من عام. ومثلما ذكرا في كتابهما: "حقيقة أن مصدرا معينا لم يرد على الهاتف أو لم يتصل لاحقا لها دلالتها المهمة أحيانا".

وطد العلاقة مع المصدر المطلع فعلا

خلال التحقيق بفضيحة ووترغيت، اتصل ودوارد برجل كان يعمل في منصب حكومي رفيع وسأله هل سمع شيئا عن التصرفات المسيئة. لقد سمع بها فعلا. وعرف قدرا هائلا من المعلومات، وبدا واضحا أنه يعتبر أن من واجبه المساعدة في فضح المؤامرة. لكن يراوده شك البيروقراطي الطبيعي بالصحافة، كما شعر بالقلق من أن تستخدم القصص المعتمدة على المعلومات التي يملكها هو وقلة من الأشخاص الآخرين بدون توكيد من مصادر أخرى.

لذلك وافق على مساعدة ودوارد، لكن تبعا لشروط معينة: سوف يكتفي بإرشاد المراسل إلى الاتجاه الصحيح، وكل ما يبلغه من معلومات يجب أن تدمج مع معلومات المصادر الأخرى. اللقاءات التي جرت بينه وبين ودوارد جرت في مرآب للسيارات تحت الأرض في الهزيع الأخير من الليل، وكانت تحدد بطلب منه. لكن نوعية المساعدة التي قدمها دفعت ودوارد إلى الموافقة على هذه الشروط.

لم يكشف المصدر هويته لأحد، وأطلق عليه أحد مدراء التحرير في "واشنطن بوست" اسم "الحنجرة العميقة" وما زالت هويته سرا غامضا لا يعرفها سوى ودوارد.

إنها لفرصة نادرة لا تتاح إلا لقلة قليلة من المراسلين، أن يتعرف ودوارد على مثل هذا المصدر المطلع ويحظى بتعاونه. لكن المبدأ الأخلاقي الذي ارتكز عليه ودوارد في تعامله مع مثل هذا المصدر هو الالتزام بالقواعد التي وضعها له. هذا لا يعني القبول بكل ما يقوله؛ فقد تجادل ودوارد مع مصدره مرارا وتكرارا، لكنه التزم وتمسك بكل ما اتفقا عليه.

دعم المدراء

يجب على مدراء الأخبار والتحرير حشد ما لديهم من موظفين وموارد لدعم مشروع التحقيق. وينبغي على رئيس التحرير الاستعداد لمواجهة المدة الطويلة التي قد يتطلبها مع احتمال أن لا ينتج أي قصة صالحة للنشر في

النهاية. إن نشر مادة لمجرد أن تحضيرها قد تطلب وقتا طويلا لابد أن يؤدي إلى كارثة. وحين ننشر القصة أخيرا، يجب أن تكون محكمة لا سبيل إلى دحضها.

على المدراء والمراسلين أن يتخذوا قرارا في وقت مبكر: هل ينشر التحقيق تباعا على شكل سلسلة من المقالات، أو على شكل "خبطة صحفية" لا تظهر إلا بعد استكمال البحث والتحقيق. في هذه الحالة الأخيرة، ينبغي تحديد موعد نهائي. من السهل للتحقيقات أن تطول وتمتد شهورا، مع إدعاء المراسلين بأنهم بحاجة "لأسبوع إضافي واحد فقط" لإنهاء بحثهم. لكن عليك أن تتذكر أيضا أن القصص المسلسلة قد تشجع أحيانا بعض الأشخاص على الإدلاء بمزيد من المعلومات المهمة.

ولكن بغض النظر عن طريقة النشر، ينبغي أن تخضع عملية التحقيق الاستقصائي للإشراف والرصد الدقيق من قبل أحد مدراء التحرير. والجزء الرئيس من هذا الدور يتمثل في طرح الأسئلة باستمرار على المراسلين فيما يتعلق بالقصة. وعلى هؤلاء المدراء اتخاذ موقف "محامي الشيطان"، أي اختبارها بإثارة الاعتراضات على تفاصيلها وفصولها، ومراجعة الأدلة والبينات مع المراسلين. فهم يمثلون العقل المنفتح والمتسائل والمستقصي في القضية.

التخفي

في معظم الأحيان، هنالك طريقة أفضل لجمع المعلومات من التخفي. لكن في بعض المناسبات القليلة (بل النادرة)، قد يكون الطريقة الوحيدة لكتابة القصة. فتقصي الحالة السائدة في عالم "مغلق"، مثل جماعة أو شركة أو منظمة سرية، هو الذريعة التبريرية عادة، ولربما هناك ذرائع أخرى. لكن يجب أن تستحق قيمة وأهمية القصة ذلك، كما أن هذه الطريقة تحتاج وقتا أطول، وتعرضك للمخاطر، أقلها الإحراج الذي تتعرض له إذا افتضح أمرك.

الأخطار الأخرى تتجاوز مجرد الإحراج. أولا، التخفي يشمل دائما نوعا من أنواع الخداع. لذلك يجب أن تكون الأعمال المسيئة التي تفضحها في

تقريرك خطيرة وضارة بما يكفي لتبرر ممارسة هذا الخداع. ثانيا، الأخطار الجسدية في هذه الحالة قد تكون داهمة وباقية حتى بعد أن تكشف هويتك لكتابة قصتك. ثالثا، إن كنت تحقق في أنشطة جنائية، فقد يدفعك التخفي إلى التورط فيها، الأمر الذي يجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، الدفاع عن أفعالك وتصرفاتك.

هنالك مخاطرة إضافية تواجهها حين تحقق في تجارة غير مشروعة وتتنكر في شخصية بائع أو مشتر، أي "عميل محرض" إذا صح التعبير. وبغض النظر عن المانع الأخلاقي، فإنك تصبح جزءا من القصة وبالتالي تغيرها. وهذا يعني - بالنسبة لي - أنك تجاوزت حدود كل ما يعرف باسم الصحافة. المثال الصارخ على هذه الحالة ما حدث عام 1994 حين انتشرت شائعات عن عرض البلوتونيوم (الذي يمكن استخدامه كسلاح) للبيع في السوق السوداء بألمانيا. وحسب عدد من المراسلين أن أسماءهم ستشتهر عند التحقيق في هذه التجارة. بعضهم تنكروا كبائعين، وبعضهم الآخر كمشترين يملكون مبالغ طائلة من المال تحت تصرفهم. وكأنما لم يكن ذلك كافيا، فقد حاول بعض الصحفيين المتنكرين بزي "المشترين" شراء البضاعة من زملائهم المتنكرين بزي "البائعين"! ولم يكتشف أفراد الفريقين الهوية الحقيقية لبعضهم بعضا، ولذلك لم تتناول القصص المنشورة في الصحف "تجارة الموت" كما زعموا، بل مجموعتين من الصحفيين المتحمسين المتهورين الذين خدعوا بعضهم بعضا - وسخروا من أنفسهم.

لكن تتوفر أمثلة على مراسلين متخفين أجروا تحقيقات ناجحة لا تنسى. فعند نهاية القرن التاسع عشر، ادعت مراسلة "نيويورك ورلد"، نيللي بلاي، (اسمها الحقيقي اليزابيث كوشران) الجنون لكي تدخل إلى مستشفى الأمراض العقلية في جزيرة بلاكويل، وتكشف فضيحة صدمت الرأي العام. ثم نشرت ما اكتشفته في كتاب حمل عنوان "عشرة أيام في مستشفى المجانين". أما الجائزة التي عرضها الناشر، جوزيف بوليتزر، فكانت تكليفها بتحطيم الرقم القياسي

للرحلة حول العالم، والمقدر بثمانين يوما كما حددته الشخصية الخيالية في رواية جول فيرن "حول العالم في ثمانين يوما". وفعلت ذلك بخلال 72 يوما، و6 ساعات، و11 دقيقة، و14 ثانية.

المحرر الذي لم ينل مكافآت على هذا المستوى، هو و.تي. ستيد من صحيفة "بول مول غازيت". فقد فضح دعارة الأطفال في لندن الفيكتورية(*) من خلال "شراء" فتاة في الثالثة عشرة من أمها، وأمضى معها - تحت مراقبة صارمة - وقتا طويلا ليثبت أن بالإمكان إخضاعها لأي غرض لا أخلاقي. أما حملته لتغيير القانون المتعلق بدعارة الأطفال فقد تلقت الدعم والتأييد من العديد من الشخصيات البارزة، بمن فيها الأساقفة. لكنها لم تتمكن من حماية ستيد من العقاب. فقد وضعته السلطات في السجن مدة ثلاثة أشهر عقوبة له على شراء الفتاة كما اعترف في قصته. هذا الرجل الغريب الأطوار، بلحيته الحمراء، وتصرفاته الشاذة (في بعض الأحيان كان يصطاد الفئران ويقليها ويلتهمها) غرق مع "التيتانيك" عام 1912.

منذ ذلك الحين، تخفى الصحفيون بشكل رئيس لفضح معاملة - أو سوء معاملة - "ضحايا" المجتمع، مثل المشردين، أو المرضى العقليين، أو المدمنين على المخدرات. يشمل ذلك نوعا من التمثيل وربما التنكر. أما "المعلم" في هذا النوع فهو ألماني يدعى غونتر فالراف. وكان هدفه دخول العوالم الممنوعة على الكتّاب. استخدم أوراقا ثبوتية مزورة، وسيرة حياتية ملفقة، وارتدى ملابس مبتكرة أو نظارات جديدة (وحتى عدسات لاصقة)، وغير شكله وملامحه. لأن مهمته كما يقول هي "أن يخدع الآخرين كي لا يتعرض لخداعهم".

صمم على أن يكون "صحفيا غير مرغوب فيه"، ولم يعتبر كذلك دون سبب وجيه، طالما يتعلق الأمر بأهدافه. فقد قام بدور مخبر لأجهزة المخابرات

(*) نسبة إلى عهد الملكة فيكتوريا (1837-1901)، ملكة بريطانيا وايرلندا، وإمبراطورة الهند (1876-1901). كان لشعورها الحاد والمتشدد بالواجب والتزامها المتزمت بالمبادئ الأخلاقية تأثيرات نافذة في المجتمع البريطاني في القرن التاسع عشر. (م)

وعميلا للأمن السياسي، واختبر اللاهوت الكاثوليكي والمبادئ الأخلاقية من خلال التنكر بلبوس عالم يصنع قنابل النابالم، وعاش حياة المشردين وأقام في مأوى لهم، وادعى أنه مدمن على الكحول في مستشفى للأمراض النفسية، ومستشار حكومي لمعرفة كيف تتوفر الوحدات المسلحة في الصناعة الألمانية لحماية المصانع. واكتشف حين ادعى أنه "ممول ألماني من اليمين المتطرف" خططا للقيام بانقلاب في البرتغال، وزعم أنه "مراسل لإحدى صحف الإثارة"، ليفضح الأساليب التي تتبعها مجلة "بيلد" الواسعة الانتشار.

كان شديد التدقيق والحرص على الملاحظات والسجلات، واعتاد أن يسجل كل شيء وينسخ جميع الوثائق التي يرغب بالاستشهاد بها. ومثلما يقول: "قررت اتباع أسلوب التآمر لاختراق جدار التمويه والإنكار والكذب. المنهج الذي تبنيته لم يخالف القانون إلا قليلا مقارنة بعمليات الخداع والغش والمناورات غير القانونية التي كشفتها".

نشر معظم ما قام به من مهمات في المجلات أو الكتيبات أو الكتب (لا في الصحف). فقد استغرقت تحقيقاته وقتا طويلا يتجاوز - ربما - ما تسمح به صحف عديدة لمراسليها. لكن النتائج كانت مؤثرة، ولم تحظ طرقه وأساليبه بما تستحق من اهتمام وانتباه ودراسة.

"يمكن لأي صحيفة أن تتفوق على جميع كنائس نيويورك في عدد الأرواح التي ترسلها إلى النعيم وتنقذها من الجحيم"

جيمس غوردون بينيت

obeikandl.com

obeikandl.com

كيف تغطي الأحداث الكبرى

"ألم تلاحظ أن الحياة، الحياة الواقعية الحقيقية، بجرائمها وكوارثها ومواريثها الخرافية، تحدث حصريا تقريبا في الصحف؟".

جان انوي،"البروفة"، 1950

ثمة قاعدة غير مكتوبة في الصحافة تقول إنه كلما قويت القصة سهلت كتابتها. فبرغم كل شيء ليس هناك من حاجة لقضاء ساعات طويلة في التفكير والتساؤل عن المقدمة التمهيدية المناسبة لبداية قصة عن حريق شب في مرقص ليلي وأودى بحياة ثمانية وستين شخصا. لكن في حين أن أسلوب الكتابة عن حادث خطير وكبير يكون مباشرا في العادة، فإن مراجعة الحوادث والبحث فيها ودراستها وتحويلها إلى قصة واضحة المعالم هي من الأمور الصعبة في أغلب الأحوال.

الحوادث الكبرى والخطيرة مشوشة ومربكة وفوضوية بطبيعتها. وحتى بالنسبة للسلطات المختصة، قد يظل ما حدث بالضبط غامضا ومربكا ومبهمة طيلة ساعات وأيام عديدة. يمكن للكوارث أن تحدث في أماكن يصعب الوصول إليها، أو في بلدان تعاني من نقص في وسائل الاتصال، أو حيث السلطات المسؤولة غير منظمة أو تبالغ في التمسك بالسرية. كما يمكن أن تحدث ليلا، أو تكون من نوع الكوارث الطبيعية، مثل إعصار ميتش الذي ضرب أمريكا

الوسطى عام 1998، حيث تطلب الأمر بضعة أيام لتقدير حجم الدمار الفظيع الذي خلفه. أما أعداد الوفيات، التي تعتبر لأغراضنا المهنية "المريعة" المؤشر المفتاحي لحجم القصة، فيمكن ألا تظهر بسرعة. ولذلك فإن التقارير الأولى عنها قد تكون مضللة على نحو خاص.

ثم هنالك شهود العيان، المصابون حتما بالصدمة والتشوش، والذين يقدمون أحيانا - نتيجة لذلك - شهادات تفتقد الدقة إلى حد كبير. السلطات المسؤولة أيضا قد تقدم معلومات مضللة؛ والسبب الشائع غالبا أن أولويتها هي إنقاذ الأرواح لا مساعدة الصحفيين؛ أو لأن من مصلحتها إظهار جانب واحد من الحادث، أو إخفاء معالم جانب آخر. في كارثة ستاد هيلزبورو عام 1989 (حين قتل 94 شخصا من مشجعي كرة القدم عند انهيار المدرجات)، ومذبحة دنبلين (حين قتل رجل مسلح 16 تلميذا وثلاثة أساتذة في مدرسة سكوتلندية)، كان اهتمام الشرطة منصبا على إخفاء وإنكار نصيبها من المسؤولية. في هذه الأيام، يدفع تهديد المقاضاة القانونية، والمسؤولية، ومطالب التأمين، المسؤولين إلى مزيد من الحيطة والحذر، ورفض المساعدة، وحتى الخداع أحيانا. عند حدوث كارثة، لا تقلل أبدا من استعداد المؤسسات المعنية، أو من يمثلونها، لتقديم معلومات موجزة للصحافيين في سبيل أغراض داخلية وأهداف خفية على جدول أعمالها.

المثال التقليدي على ذلك تجسده أعمال الشغب التي اندلعت في سجن سترينجوايز في نيسان/ إبريل عام 1990. ولربما تكون التقارير التي كتبت عن الحادث أكثر تقارير الحوادث الكبرى التي تعيها الذاكرة بعدا عن الحقيقة والدقة. بدأت القصة في الأول من نيسان/ إبريل عندما استولى السجناء، الذين أغضبهم اكتظاظ السجن وبالتالي حبسهم في الزنزانات مدة 23 ساعة في اليوم، على المفاتيح من السجانين، وأطلقوا سراح حوالي 1000 سجين آخر، وأحرقوا الكنيسة الصغيرة وقاعة الرياضة، وسيطروا على السجن. كان حدثا

خطيرا وكبيرا بكل المعايير، زاده إثارة وجاذبية صور المساجين الذين علقوا اللافتات على النوافذ وجلسوا على السطح وهم يرتدون أقنعة صنعت على عجل ويقذفون الحجارة على الأرض. ونظرا لأنهم تمترسوا في المباني الرئيسة واحتلوها بضعة أيام، كان من المستحيل معرفة ما يحدث فيها. ظهرت إشارات قوية تؤكد تعرض المسجونين بسبب جرائم الجنس (الذين يقيمون في مبان منفصلة عادة) إلى الهجوم في خضم الاهتياج والاضطراب في السجن.

هذا الغموض الذي غلف ما كان يحدث بالضبط بدا كفجوة لم تكن صحف الإثارة مستعدة لمواجهتها. في الثامن من نيسان/ إبريل، ذكرت "ديلي ميرور" أن "11 قتيلا سقطوا في أعمال الشغب التي اندلعت داخل السجن"؛ وفي نفس اليوم قالت "ايفننج ستاندارد" إن 20 شخصا قتلوا، وبعد يومين اثنين كتبت "صن" على صدر صفحتها الأولى نقلا عن مصادر "تنفرد بها حصريا": "ربما قتل أكثر من ثلاثين شخصا". ولم ترغب "ديلي ميرور" بأن تبزها الصحف الأخرى، فكتبت تقول: "الغوغاء في السجن شنقوا شرطيا". وانتشرت حكايات تتحدث عن عمليات شنق أعقبت إقامة محاكم "قراقوشية"، وعمليات خصاء، ومساجين دفعوا من فوق السلالم، أو وضعوا على الخازوق، أو ذبحوا من الوريد إلى الوريد، أو حقنوا بالقوة "بمزيج من العقاقير المخدرة" التي سرقت من صيدلية السجن، أو تعرضوا للضرب بقضبان حديدية وقطعت أوصالهم.

اتضح أن جميع هذه القصص عارية عن الصحة. إذ لم يقتل سوى رجلين، وبالنسبة "للشرطي المشنوق" (حسبما ذكرت "ديلي ميرور")، فقد تبين أنه رجل محكوم بجريمة اغتصاب، ويقضي عقوبته في سجن ارملي، على بعد سبعين ميلا في ليدز. حقيقة ما حدث أن عدة عوامل قد تضافرت لتوليف خلطة من الحقائق المزورة، والافتراضات المزيفة، والأكاذيب - صدقتها صحف الإثارة وبعض الصحف الرصينة دون تمحيص.

أولا، هناك الفوضى العارمة التي سيطرت على الوضع، واستحالة معرفة ما كان يحدث فعلا آنئذ، (المصدر الرئيس لخبر "الإعدام" كان محاميا أبلغ قضاة محكمة اولدهام بأن موكله رأى ثلاث جثث تتدلى من الشرفات. وتبين أنها دمى على شكل بشر تستخدم في دروس الإسعافات الأولية). ثانيا، العديد من الإشاعات المهيجة أتت من رجال يرتدون الزي الرسمي، وضباط وحراس السجن على وجه الخصوص. وكانت لديهم أسبابهم الذاتية لتصوير أعمال الشغب بوصفها "تفجرا للشر"، على حد تعبيرهم. أما الناطق الرسمي فقد تحدث باستمرار عن "الوفيات"، مع الترويج لقصص الرعب (مع طلب عدم ذكر اسم المصدر). بينما أضافت الإدارة الحكومية المسؤولة المزيد إلى هذا الانطباع من خلال إرسال عشرين كيسا للجثث إلى السجن (في إحدى مراحل الأزمة).

لكن الصحف فاقمت ما سيصيبها من حرج فيما بعد. إذ لم تخضع المعلومات التي وصلتها للمساءلة. وفي بعض الحالات، لم تشر إلى البيانات والتصريحات باعتبارها مزاعم بل حقائق راسخة. فقد أرادت تصديق "السيناريو" الأسوأ، ووجدت - في هذه المناسبة بالذات - تواطؤا واستعدادا من الجهات الرسمية. إذ سمعت ما أرادت سماعه وصدقته. ثم تجاهلت صحف الإثارة كل خبر لم يناسب هذه الافتراضات النظرية. في صبيحة اليوم التالي على اندلاع أعمال الشغب، مثلا، نفى طبيب استشاري في مستشفى "نورث مانشستر" العام خلال مؤتمر صحفي استقبال أي سجين مصاب بجراح خطيرة. ولم تذكر هذا الخبر سوى الصحف الرصينة. والأهم من ذلك أن معظم الصحفيين لم يسألوا أنفسهم هل يبدو ما يقال لهم معقولا وجديرا بالتصديق. اكتفوا بترديده وحسب، وتناسوا جميعا أن مسؤولية الصحفي تتجاوز إطار العثور على مصدر للقصة. فهي تمتد لتشمل تدقيق وتمحيص ما يقوله المصدر.

العدو الآخر (الذي يوجده الصحفي بنفسه) للتغطية الدقيقة والرصينة للأحداث هو الاندفاع والتعجل في إصدار الحكم. وهذه حالة أكثر شيوعا من

الظروف التي أضعفت وشوهت تغطية قضية ستورينجوايز، والصحفيون الذين يرسلون التقارير عن الكوارث التي تشمل خطأ بشريا أو ميكانيكيا معرضون لشراكها بشكل خاص. فالحاجة الراهنة لتفسير آني، والعثور على الأشرار فورا، تدفع الصحفيين إلى رفع إصبع الاتهام واللوم باتجاه معين قبل وقت طويل من اتضاح جميع الحقائق الأساسية. في أيار/ مايو 1991 مثلا، سقطت طائرة بوينغ 767 (تابعة لشركة لودا إير) في أدغال تايلند مما أدى لمقتل جميع ركابها البالغ عددهم 223. ومن بينهم دون مكنتوش (43 سنة) الموظف الحكومي البريطاني المعار إلى برنامج مكافحة المخدرات الذي ترعاه الأمم المتحدة. هذه الحقيقة لوحدها كانت كافية بالنسبة لصحيفة "ديلي ستار" لتقفز متعجلة إلى استنتاجات سابقة لأوانها. فقد كتبت على صدر صفحتها بالخط العريض: "الضحية"، فوق قصة تتناول كيف قتل "بارونات المخدرات القساة" 223 شخصا من أجل اغتيال رجل واحد (كليشيه مبتذلة ومنقولة مباشرة من الأفلام السينمائية). كل ذلك كان بالطبع محض تخمينات اعتمدت على مصادفة وجود مكنتوش على الطائرة. قبل انقضاء أسبوع واحد، تم العثور على الصندوق الأسود الذي كشف لاحقا أن سبب الحادث يعود إلى دوران محرك الطائرة بشكل عكسي فجأة.

كيف تتأكد من أن تغطيتك الصحفية لكارثة لا تتحول إلى واحدة أخرى!؟

غالبا ما تصل التقارير الأولى حول ما سيتبين لاحقا أنها كارثة كبرى عبر الاتصالات السلكية باعتبارها حدثا تافها قبل أن تتضخم وتغدو حدثا مهما. في بعض الأحيان، قد يحدث العكس، حيث تبدو نائبة هائلة الأبعاد، لتصحح التقارير اللاحقة المبالغة والتهويل وتحول الكارثة إلى حدث عادي. التجربة تعلمنا عدم التسرع في إصدار الحكم، ويمكن أن تزودنا بالحس الفطري للتمييز بين الأحداث التي تتضخم لتصبح مهمة وخطيرة وتلك التي تبقى صغيرة وقليلة الأهمية. ومن الدلائل الإرشادية الجيدة في هذا السياق أن أي

حادث لا تتضاءل أهميته على الفور يجب اعتباره خطيرا ومهما حتى يثبت العكس. لم يحدث أبدا أن تأثرت سمعة أحد بإجراء بضع اتصالات إضافية ثبت أنها عبارة عن جهد ضائع، لكن العديد من الصحفيين قد أصبحوا هدفا دائما للسخرية والتندر بسبب تجاهل وإغفال القصص الخطيرة والأحداث الكبرى.

أول إشارة تلمح إلى الكارثة المحتملة ربما تأتي ضمن تقرير مرسل على شكل برقية، مثل: "وقع حادث لطائرة بوينغ (تابعة لشركة "يورو" مثلا) في مطار هيثرو عند الساعة 14.26". أنت تعلم أن وكالة الأنباء المحلية لن تهتم بالتوافه، لكن عند هذه المرحلة يمكن للحادث أن يكون أي شيء: بدءا من تحطم طائرة ومقتل ركابها، وانتهاء باندلاع حريق بسيط لم يصب فيه أحد. لذلك سوف تنتظر. وبعد عشر دقائق ربما، تورد الوكالة التقرير التالي: "يبدو أن طائرة شركة 'يورو' القادمة من فرانكفورت قد تحطمت. ولم ترد أنباء بعد عن سقوط ضحايا".

هذه هي النقطة التي يجب أن يرسل عندها المراسل الصحفي والمصور إلى مكان الحادث، وإذا كان محرر الأخبار يعرف ما يفعله، يكلف أفضل الكتاب بمهمة تنسيق القصة. أي متابعة فصولها من خلال البرقيات الواردة واستخلاص زبدة ما يبعث به المراسلون في مكان الحادث لسرد ما حصل على صدر الصفحة الأولى.

ستصل الآن مزيد من التقارير، لتوضح وتؤكد أن الحادث كارثة كبرى. فقد اندلعت النار في الطائرة عند هبوطها على المدرج، وقتل أكثر من مائة شخص، وهنالك العديد من الأسئلة التي لا تزال بدون إجابات. ومع انقضاء اليوم، ظهرت إجابات عن بعضها: الطائرة، وهي من طراز بوينغ 737 وتابعة لشركة "يورو اير" عانت من بعض المشكلات الفنية عند اقترابها من مطار هيثرو. ازداد الوضع خطورة. شب حريق في أحد المحركات، فسقط من الطائرة وهي محلقة في الجو، ثم امتد الحريق إلى محرك آخر، فتوقفت

الأجهزة الإلكترونية عن العمل واضطر قائد الطائرة للهبوط يدويا بمحركين اثنين فقط. أما المحرك فقد سقط على مدرسة، كانت مغلقة لحسن الحظ. مزيد من المعلومات تأتي تباعا، ليس بالضرورة تبعا للترتيب المنطقي الوارد هنا، بل بشكل خليط مشوش من الأجزاء الصغيرة، مع تصحيحات وتراجعات تصاحب مزيدا من التفاصيل الغريبة.

يبدأ عدد الضحايا بثلاث أو أربع وفيات مؤكدة. ثم يتصل مراسل ليقول إنه تحدث مع امرأة شاهدت "العديد من الجثث". ثم تعرف أن وزير التجارة الألماني - مثلا - كان على متن الطائرة المنكوبة، وأنه توفي نتيجة الحريق بعد ارتطام الطائرة بالأرض، وأن أحد المغنين المشهورين قد شارك في عملية الإنقاذ. تعقد شركة الطيران مؤتمرا صحفيا تقول فيه إن الحريق اندلع في مقصورة المسافرين بعد الهبوط مباشرة وبخلال عشر دقائق انتشر في الطائرة برمتها. وتبين أن ستين فقط من أصل 210 مسافرين قد نجوا من الحادث، وقد أصيب العديد منهم. وإذا كنت محظوظا جدا، ستتوفر كل هذه المعلومات قبل صدور الطبعة الأولى من صحيفتك. لكن في العادة، ستصدر الصحيفة عدة طبعات لتغطية الحادث، وينبغي إرسال النسخة الأولى إلى المطبعة قبل وقت طويل من اتضاح القصة برمتها.

بالطبع، ستغلف حالة من الغموض وعدم اليقين طيلة اليوم الحقيقة المتعلقة بحجم الكارثة، وعدد الصفحات التي يجب تخصيصها لتغطيتها، وكيفية التعامل مع الأخبار الأخرى. لكن في الوضع المثالي، هذه هي التغطية التي ينبغي على كل صحيفة رصينة أن تستهدفها، وكيف يجب أن تجمع فصول القصة:

- **رواية ما حدث حسب الترتيب الزمني:** يجب عليك (أو على الفريق الذي تعمل ضمنه) صياغة رواية لتفاصيل الحدث، دقيقة بدقيقة، أو ساعة بساعة، من لحظة البداية وحتى النهاية. وهذا يعني عدم التوقف عن طرح الأسئلة: "وبعد ذلك ماذا حدث؟". حاول تجميع فيلم "فيديو" للحدث في

ذهنك. عليك أيضا أن تبقى على اتصال منتظم مع كل خدمات الطوارئ والمستشفيات والسلطات المختصة. الرواية الرئيسة للحدث سيكتبها بالتأكيد (تقريبا) المحرر - المنسق. كما يمكن لهيكل القصة أن يظهر على شكل عمود جانبي يضم بضعة أسطر عن كل جزء من الرواية، مع التوقيت الدقيق.

- **تقارير شهود العيان:** تجمع هذه في موقع الحدث من قبلك، إضافة إلى برقيات المراسلين المستقلين، والصحفيين الذين يعملون في المكاتب ويتصلون بالأشخاص الذين ظهروا على شاشات التلفزيون أو تحدثوا عبر الإذاعة. وعلى المراسلين الذين أرسلوا إلى موقع الكارثة أو المستشفيات أن يتأكدوا من حصولهم على المعلومات الدقيقة حول جانب القصة الذي يعملون عليه - التفاصيل، الشواهد، السرد، الأسباب.. الخ. وبدون ذلك ستجد أن عدة مراسلين يركزون جوهريا على الجزء نفسه. ولا تشعر بالانزعاج إن كانت مهمتك جمع المعلومات وإرسالها إلى المكتب على شكل خليط من الأجزاء الصغيرة، فأكثر الأخطاء شيوعا في تغطية الكوارث التي يقوم بها عدة مراسلين هو توقف الجميع عن إرسال التقارير في وقت مبكر من أجل كتابة نسخة منمقة عن القصة.
- **السبب:** يعتبر السبب المباشر (الأخطاء الميكانيكية مثلا) والأسباب غير المباشرة أجزاء حيوية من القصة، لكن قد يتطلب الأمر وقتا للحصول على المعلومات الصحيحة حولها. لذلك، حاذر من التسرع في توجيه اللوم. وركز بدلا من ذلك على نقل الصورة الكاملة لما حدث، وتعامل حتى مع النظريات الرسمية باعتبارها تخمينات إلى أن يثبت صدقها. فهنالك تاريخ طويل من التفكير الرسمي بصوت عال - وجامح أحيانا - حول أسباب الكوارث. والصحف التي تورد هذه الأفكار كحقيقة راسخة تبدو فيما بعد على درجة كبيرة من الحمق والسخف. وكل نظرية تتهم الإرهاب أو الانتحار غير مدعمة بالأدلة والبينات ينبغي التعامل معها بحرص وحذر، وتوضيح اسم المصدر، والإشارة إلى أي معلومات لم تثبت بالدليل القاطع.

- **سجل السلامة والأمان لطائرات بوينغ 737**: كم عدد الحوادث التي وقعت لهذا الطراز من الطائرات؟ ما هي الأسباب؟
- **نبذة عن مسيرة شركة الطيران المالكة للطائرة**: التفاصيل الكاملة المتعلقة بالشركة المعنية وتاريخها، إضافة إلى التأثيرات المحتملة للحادث عليها، وعلى أسعار أسهمها.. الخ. وإذا كان مركز الشركة قريبا، يمكن للمراسل زيارته والتحدث إلى الموظفين حول الشركة وسياساتها. على سبيل المثال، ربما لجأت الشركة مؤخرا إلى الاقتصاد في النفقات، وتخفيض مخصصات الصيانة المنتظمة للطائرات لتوفير المال.
- **السيرة المهنية لقائد الطائرة**: تبعا لما لدينا من معلومات، قام القبطان بدور بطولي عندما هبط بالطائرة يدويا وبدون محركين. سوف يرغب الناس بمعرفة شيء عن خلفيته وخبرته.
- **نعي الشخصيات المهمة من بين الضحايا**: قد لا يستحق ذلك مقالة منفصلة، لكن حين يقتل شخص شهير في الكارثة، عليك تفويض مراسل للبحث في سيرة حياته.
- **الضحايا**: تظل مجرد أرقام إلى أن يتم تحديد هوياتها. وعندما تعرف أسماء الضحايا، سترغب في معرفة من هم، وماذا كانوا يعملون.. الخ. لابد من وجود قصة عن شخص لحق بالطائرة المنكوبة في آخر لحظة، أو شيء من هذا القبيل.
- **عملية الإنقاذ**: ما الذي حدث على الأرض عند سقوط الطائرة؟ كيف كانت ردة فعل خدمات الطوارئ؟ من هم أبطال عملية الإنقاذ؟ كيف نفذت العملية؟
- **البطل**: ما هو دوره في عملية الإنقاذ وما هو سبب سفره على الطائرة..؟
- **حوادث سقوط الطائرات التي وقعت مؤخرا حسب ترتيبها الزمني**: قائمة بحوادث الطائرات التي أودت بحياة المسافرين (في بريطانيا مثلا) خلال السنوات العشر الماضية، أو الكوارث الجوية الكبرى في العالم التي وقعت

obeikandi.com

خلال العامين الماضيين. وكالات الأنباء توفر هذه المعلومات عادة بشكل روتيني.

- **وصف مشهد الكارثة:** وصف تفاصيل المشهد على المهبط أو داخل المطار سوف يشكل مادة ثمينة لمنسق التقرير. ابحث عن التفاصيل، وتجنب المشاهد الانطباعية والمتوقعة سلفا.
- **الصندوق الأسود:** ما هو الصندوق الأسود (الذي يضم تسجيلا لاتصالات الطائرة)؟ كيف يعمل؟ الصندوق الأسود واحد من الأشياء التي يشير إليها الناس دائما لكن لا يعرفون سوى القليل عنها، باستثناء حقيقة أنه جزء مهم من أي تحقيق حول حادث سقوط الطائرة. الصندوق الأسود، مثلا، ليس أسود اللون. يمكن الكتابة عنه في إطار جانبي مستقل، أو كجزء من المقالة حول التحقيق الذي أعقب الحادث.
- **رأي الخبراء:** بالنسبة للعديد من الكوارث (النادرة على وجه الخصوص) سوف تحتاج إلى خبراء يشرحون الأمور التقنية. حوادث الطائرات ليست نادرة، لكن برغم ذلك يمكن إجراء مقابلة مطولة مع خبير متخصص في السلامة الجوية لكتابة مقال حول الموضوع. يمكن الاتصال مثلا بمحقق متقاعد (شارك في التحقيق بحوادث عديدة) للحصول على معلومات ورؤى مثيرة. فإذا عثرت على واحد حاول دعوته إلى المكتب. فعلى أقل تقدير، حين يكون في المكتب تضمن ألا يقدم معلوماته الثمينة لصحيفة أخرى منافسة.
- **المقالة المنسقة:** كل المعلومات الجيدة والمفيدة التي استخلصت من التقارير السابقة (إضافة إلى الاستقصاءات الأخرى، مثل التأثيرات المحتملة على مواعيد الرحلات وأرقام هواتف أقارب الضحايا الذين يعذبهم القلق..) سوف تجمع في المقالة المنسقة. وهذه عبارة عن سرد مطول وشامل لتفاصيل الحادث على الصفحة الأولى. في العادة، يعتبر الأسلوب المباشر البسيط وغير العاطفي أفضل مقاربة: "بدأ كل شيء حين.." مسبوقا

ببضع فقرات كمقدمة. لا تلجأ أبدا إلى المناورة والتعقيد، خصوصا حين لا تكون الأحداث قد اكتملت عند كتابة القصة. اذكر فقط ما هو مؤكد ولا تترك شيئا مرتهنا بالحظ والقدر حين تتكشف مزيد من التفاصيل والحقائق.

لا تسير جميع هذه العناصر بشكل منفصل، لكن العديد منها يكون كذلك. قد يظن بعض المحررين أن مثل هذه التغطية تعتبر مثالية من حيث الحجم والمدى. لكن مع قصة بهذا الحجم تسنح لك فرصة التحليل العميق لحدث يستأثر باهتمام جمهور القراء. محطات التلفزة قد تكون السباقة في بث الخبر والصور، لكنها لا تستطيع أن تقدم تحليلا متعمقا كما تفعل الصحف. فبرنامج إخباري مدته نصف ساعة لن يضم من الكلمات أكثر من الصفحة الأولى للصحيفة العادية في المعدل المتوسط. وبالرغم من أن ذلك لا يمثل الاعتبار الأول، إلا الحكم على الصحف يعتمد على موظفيها ومحرريها وكيفية تغطيتها للأحداث الكبرى. أما أكثر ما يندم عليه معظم المحررين في حياتهم فهي قصة كبرى قللوا من أهميتها.

أعداد الضحايا

المشكلة تكمن في جانبين من جوانب تغطية الكوارث: أعداد الضحايا والاتصال بأقربائهم. ففي الساعات القليلة الأولى، تكون أعداد الضحايا مصدرا للتشوش المتواصل. في الكوارث الطبيعية، مثل الفيضانات، يمكن لحالة الغموض وعدم اليقين أن تستمر أياما، وحتى برغم ذلك يمكن أن تفتقد التقديرات الرسمية الدقة إلى حد بعيد. في زلزال طوكيو عام 1923 مثلا، قفز عدد القتلى الذي أوردته الصحف من 10 آلاف إلى 500 ألف، ثم إلى أكثر من مليون بخلال ثلاثة أيام فقط. أما العدد الحقيقي فبلغ 150 ألفا، وبحلول الوقت الذي أوردت الصحف ذلك، ذكرت أيضا أن بركان جبل فوجي قد انفجر (ولم يحدث ذلك)، وأن جزيرة في خليج ساغامي ابتلعتها موجات المد (وهذا غير صحيح)، وأن رئيس الوزراء الياباني اغتيل على يد أحد الغوغاء المسعورين (الخبر عار عن الصحة أيضا).

التقديرات المبكرة لأعداد الضحايا قد تنخفض أو ترتفع. المشكلة أنك لن تعرف الحقيقة إلا فيما بعد. لكن مع قليل من الحظ، سوف تتوصل السلطات المعنية إلى اتفاق مشترك حول رقم تقريبي موثوق يمكن الاعتماد عليه. وإلا ينبغي عليك أخذ الرقم الأدنى من مصدر موثوق عادة والقول "توفي .. شخص على الأقل حين..."، أو أعلى رقم يبدو معقولا: "يخشى المسؤولون أن يصل عدد الضحايا إلى.. حين..". ليس ثمة طريقة لمعرفة أي الأسلوبين تفضله الصحف عادة، لكن لا ينبغي استخدام الأسلوب الثاني كترخيص للتضليل والإثارة. تأكد من الأرقام التي تقدم لك. هل هي أرقام الجثث التي عثر عليها. أم التقديرات للعدد النهائي للضحايا. وكذلك من أرقام الجرحى: هل تمثل الذين نقلوا إلى المستشفيات؟ أما الجرحى مهما كانت إصاباتهم طفيفة؟

حتى أشد السلطات حذرا وحرصا ترتكب أخطاء فادحة فيما يتعلق بأعداد الضحايا. كارثة قطار بادينغتون في لندن (1999) مثال تقليدي على ذلك، فقد اصطدم قطاران في ساعة الذروة الصباحية وبدا على الفور أن الحادث كبير وخطير. وبخلال بضع ساعات، عرف تسلسل الأحداث الرئيسة، إضافة إلى أعداد الضحايا التي اقتربت من 70. ثم بدأت التقارير التفصيلية المريعة تنتشر وتتحدث عن "كرة نارية" اكتسحت العربة الأولى. ولو وجد أي راكب داخلها، كما قال المسؤولون، لاحترق على الفور. بحلول اليوم التالي على الاصطدام، كانت بعض الصحف تؤكد أن عدد القتلى تجاوز السبعين، وتلك حقيقة ثابتة. ثم ارتفع العدد، بعد المعلومات التي أدلى بها مسؤولو الإطفاء والشرطة، ليبلغ "قرابة 170". لكن عندما أرسلت فرق الإنقاذ للبحث بين الحطام، تبين عدم وجود جثث في العربة الأولى مع أن الحطام متناثر فيها. والحقيقة أن ما فات الجميع - من الشرطة والصحفيين - هو تجشم عناء التحدث مع الناجين من العربة وسؤالهم عن عدد الركاب فيها. وتبين أن العدد لم يتجاوز عشرة (نجوا جميعا)، وذلك خلافا للافتراضات التي اعتمدت على سعة العربة وقدرت العدد بالعشرات. بخلال بضعة أيام، انخفض عدد الضحايا إلى 35.

الاتصال بذوي الضحايا

الاتصال بأقرباء الضحايا عمل يخشاه كل مراسل صحفي. ولابد أن تكون غريب الأطوار فعلا إن لم تشعر بذلك. أما الصعوبة، في ذهن المراسل على الأقل، فترتبط ارتباطا وثيقا بالزمن الذي انقضى منذ تلقت الأسرة النبأ المفجع. ويبدو دائما أن من الأصعب (والأسوأ) أن يطلب منك الاتصال بأقرباء مفجوعين بوفاة زوج أو ابن أو زوجة أو ابنة، أو زيارتهم، بخلال ساعات من الحادث، مقارنة بالحال بعد عدة أيام. في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان، حيث تقل سيطرة الشرطة بعد إعلان أسماء القتلى مقارنة بأوروبا، يمكن أن يتحدث المراسل مع عائلة المتوفى دون أن تعرف بالخبر. ولا عجب أن يذهب بعض المراسلين، حين يطلب منهم القيام بهذه المهمة، إلى السينما ثم يرجعوا إلى مكاتبهم ويؤكدوا لرؤسائهم أنهم لم يجدوا من يتحدث إليهم. لقد فعلنا ذلك كلنا.

الاتصال بذوي الضحايا واحد من المجالات العديدة في المهنة التي لا تتطلب أسلوبا حازما وسريعا. فهو يرتبط، من ناحية، بفكرة أن للمواطنين الحق بمعرفة كل تفاصيل الحادث (بما في ذلك التفاصيل الدقيقة لحياة الضحية). وكل ما هو دون ذلك عبارة عن تهرب ومراوغة للمسألة. وإذا أدى ذلك على إزعاج ومضايقة المفجوعين بعزيز، فليكن، كما تؤكد مثل هذه الحجة. من أكثر الحالات التي عرفتها صدمة للمشاعر وتبلدا في الإحساس، تلك التي رويت عن جيم ريتشاردسون، رئيس قسم الأخبار المحلية في صحيفة "لوس انجلوس اكزامنر". فتبعا للسيرة الذاتية للكاتب المتخصص في الرياضة جيم موراي، أمر ريتشاردسون ذات مرة المراسل الصحفي وين سوتون بالاتصال بأم ثكلى.

قال له ريتشاردسون "لا تعلمها بما حدث. قل لها إن ابنتها فازت بمسابقة لملكات الجمال في كامب روبرتس. ثم خذ منها كل المعلومات عن الفتاة". نفذ سوتون التعليمات، وروت الأم بسعادة غامرة تفاصيل

قصة حياة ابنتها. ثم وضع سوتون يده على السماعة، وسأل رئيسه: "والآن، ماذا أفعل؟". نظر ريتشاردسون إليه بمكر وقال بصوت يعبر عن الرضى والسرور: "الآن قل لها الحقيقة".

تنتمي هذه الطريقة، كأسلوب تقني، إلى غرفة الرعب الصحفية. من ناحية أخرى، هنالك الفكرة القائلة إن أي اتصال بالمفجوعين تدخل فظ وتعد لا مسوغ له، ولذلك يجب إلغاؤه. وتؤكد هذه الحجة أن على المراسلين الالتزام بالمعلومات التي يمكن جمعها من المصادر العامة أو من أولئك العارفين والمطلعين على التفاصيل، لا من المقربين الذين تربطهم علاقة حميمة بالضحية (مثل الزملاء أو الجيران).

الموقف الأكثر ذكاء وحرفية، برأيي، هو مفاتحة أفراد الأسرة بطريقة لبقة تراعي مشاعرهم، وتمنحهم الفرصة للكلام. فبرغم كل شيء، من أنت لتحرمهم من رؤية حياة فقيدهم مكتوبة ومنشورة، ربما للمرة الوحيدة، بدلا من أن يكون مجرد اسم على لائحة الضحايا؟ والمقاربة التي تراعي مشاعر الآخرين سوف تلقى الترحيب والقبول إلى حد مفاجئ. فالعديد من المفجوعين بعزيز يرغبون بالشعور بأن فقيدهم عاش حياة تستحق أن تسجل، والتحدث مع وسائل الإعلام طريقة يمكنهم من خلالها الاتصال بالعالم الخارجي ومشاركته حزنهم أيضا. في حالتهم هذه، يعتبر حتى الحديث مع مراسل بمثابة علاج. مراسل "ديلي ميرور"، ديريك لامبرت، كتب في مذكراته يقول:

كلما زرت أبوين مفجوعين، أو أرملة حزينة، ألقى الترحيب الحار. أدخل إلى البيت، فيعرض أمامي "ألبوم" الصور - لأرى طفلا ببنطال قصير، وجنديا على وجهه ابتسامة مكشرة يقف مرتبكا بلباس الخدمة- وتتدفق الذكريات. وبحلول الوقت الذي أصل فيه إلى بوابة الحديقة، تراودني - أنا - الرغبة بالبكاء.

القاعدة الذهبية هي التعاطف مع الآخرين، وهذا موقف محوري في النصيحة النصوح التي يقدمها مركز وسائل الإعلام والضحايا في كلية الصحافة بجامعة ميشيغان. أما المعلومات المفيدة التي يقدمها للمراسلين عند الاتصال بذوي الضحايا فهي:

- امنح ذوي الضحايا إحساسا بالسيطرة والتحكم. اطلب منهم أن يبلغوك متى يريدون قول شيء ليس للنشر. أعطهم رقم هاتفك وقل لهم إن بمقدورهم الاتصال لمناقشة القصة.
- ناقش قضايا الخصوصية والسرية منذ البداية. اشرح لهم ماذا تريد، ومع من تخطط للحديث، والمدة التي يستغرقها.
- استعد لاحتمال أنك تنقل خبرا سيئا - إن لم يكن خبر الوفاة ذاته، ولربما لا يعرفون بعض الجوانب والتفاصيل.
- تحدث إليهم بشكل ودي ثم اطلب الإذن بكتابة بعض الملاحظات. اسألهم إن كان بمقدورك استخدام آلة تسجيل.
- أظهر إقرارك بمدى الخسارة التي تعرضوا لها. قل لهم مثلا: "أشعر بالأسف الشديد لمصابكم الأليم"، أو "ليس الذنب ذنبكم" أو إذا كانوا من الناجين: "نحمد الله على سلامتكم".

إذا اتبعت النصيحة الأخيرة، إياك أن تقول: "أنا حزين مثلكم تماما". فمن المستبعد جدا أن تكون كذلك. الأساتذة في جامعة ميشيغان سمعوا مرة عن مقابلة أجراها مراسل شاب مع رجل تعرضت ابنته للتو للاغتصاب والقتل. قال المراسل: "أعرف شعورك، أنا حزين مثلك، فقد تذكرت عندما مات كلبي". من المؤكد أن العبارة لا تقال أبدا لأب مصدوم فقد ابنته الوحيدة.

أخيرا، إذا طلب منك الاتصال بواسطة الهاتف، نقدم لك نصيحة مفيدة حول كيفية التعامل مع ردة فعل تعبر عن الغضب أو الضيق. النصيحة تأتي من ادنا بوكانان، المراسلة الجنائية السابقة لصحيفة "ميامي هيرالد" والفائزة

بجائزة بوليتزر. ففي عملها في الصحيفة الذي امتد طيلة ثمانية عشر عاما، قامت بتغطية أكثر من خمسة آلاف جريمة قتل، وكثيرا ما أغلق ذوو الضحايا الهاتف في وجهها ورفضوا التحدث معها. كانت سياستها تتلخص في الانتظار ستين ثانية، ثم الاتصال مجددا. وغالبا ما يغير الشخص المعني رأيه أو يجيب فرد آخر من الأسرة أكثر قبولا ورغبة بالكلام. كانت تقول: "أنا ادنا بوكانان من 'ميامي هيرالد'. لقد انقطع الاتصال"، وتضيف:

من المهم فعلا منحهم الفرصة لتغيير رأيهم، فلربما ندموا فورا لأنهم قطعوا الاتصال، أو قال أحدهم: 'كان عليك أن تتحدث مع المراسلة'. أما إن رفضوا الكلام مجددا فلا أكرر المحاولة مرة ثالثة. لكن في أكثر من نصف الحالات، أحظى بفرصتي في المحاولة الثانية.

كل المراسلين قساة غلاظ، أليس كذلك؟

أخيرا، ما مدى نجاح المراسلين - برأيك - في دفع تهمة المشاركة في تسبيب الكارثة عن أنفسهم؟ يعتقد الناس أن المراسل الصحفي شخص قاس قدّ قلبه من الصوان. فهو عيّاب، بارد، يخطط بذكاء، ولربما فظ عديم الرحمة أيضا. وهو يستطيع أن ينظر إلى جثة وجها لوجه - ويبتسم. المراسل ينتمي إلى صنف من الناس يشبهون مثلا بن هيكت، مراسل "شيكاغو ديلي نيوز" الذي شارك في تأليف كتاب "الصفحة الأولى".

خلال العقدين الثاني والثالث من القرن الماضي، قام هيكت بتغطية كل الأعمال الإجرامية والدنيئة والقذرة التي ارتكبتها العصابات في هذه المدينة الصاخبة. كان عمله يتركز على ثلاجات الجثث، وغارات الشرطة، وقاعات المحاكم، وزنزانات المحكومين. ومعظم الذين يقابلهم في نهاره هم من القتلة والمنحرفين والمهووسين والمرضى النفسيين. شاهد كل ما في شيكاغو من حثالة، واستطاع دوما أن يحافظ على رباطة جأشه.

إلى أن جاء يوم كان يحضر فيه محاكمة رجل ذبح أفراد أسرته كلها. بدت القضية عادية بالنسبة لهيكت الذي جلس في منصة المراسلين المزدحمة يراقب القاتل، وهو يقف بدون مبالاة بجسده الضخم أمام القاضي كي ينطق بالحكم. حكم القاضي عليه بالإعدام شنقا، وعندما عاد المارد إلى الحياة فجأة صاح "اشنقني، أرجوك!"، وأخرج من سترته ساطورا ضرب به القاضي فاخترق قلبه، وسقط على الأرض وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

خيم الصمت على القاعة وذهل الجميع وتجمدوا، بمن فيهم هيكت، الخبير المحنك الصلب. الجميع: باستثناء مراسل ضئيل من صحيفة منافسة تدعى "انتر - اوشن". وتمكن هيكت من رؤيته وهو يكتب باهتياج، فقد كان المراسل الوحيد من بين ثلاثين الذي امتلك ما يكفي من الجرأة وقوة الأعصاب بحيث لا يشغله ما حدث عن مهمته. كتب على عجل ليملأ عدة صفحات صغيرة، ثم صاح مناديا على الصبي الذي ينقل الرسائل، فقفز هذا لينقل السبق الصحفي إلى الهاتف.

تذكر هيكت فيما بعد قائلا: "لم يملك أحد منا في قاعة المحكمة سرعة البديهة الكافية ليكتب كلمة واحدة، وأصابنا الاعتداء بالشلل. ومع ذلك، امتلك هذا الرجل من "انتر - اوشن" أعصابا فولاذية، ولم يتوقف لحظة عن أداء عمله. تملكني الفضول لأعرف ما كان يكتب". ركض هيكت خلف الصبي وأمسك بذراعه وخطف منه الصفحات الصغيرة. ووجد عليها، بخط مكتوب بيد مرتعشة، الكلمات التالية: "طعن القاضي بسكين، طعن القاضي بسكين، طعن القاضي بسكين.. ".

"حين تسمع خبرا وصفه صحفي بأنه مقلق، تعرف بأنك لا يمكن أن تأخذه على محمل الجد".

كينيث روبنسون.

obeikandl.com

الأخطاء، والتصحيح، والخداع

"ربما ينبغي على رئيس التحرير تقسيم صحيفته إلى أربعة أقسام؛ أولا، الحقائق؛ ثانيا، الاحتمالات، ثالثا، الإمكانات، رابعا، الأكاذيب".

توماس جيفرسون

"كان يا ما كان.. في سالف العصر والأوان".. كانت الصحف معصومة عن ارتكاب الأخطاء. إن بدت العبارة مقدمة لحكاية خرافية، فلأنها فعلا كذلك. الصحف ارتكبت أخطاء فعلا؛ لكنها لم تعترف بها - أو على الأقل بقيت على عنادها حتى أجبرها المحامون على الاعتراف. لقد ظلت الصحف طيلة عقود من السنين تفضل أن تكون كاذبة جريئة بدلا من باحثة عن الحقيقة.

هذا الادعاء بالعصمة سخيف وعبثي. فالتقارير الكاذبة أنتجت (وتنتج) ملايين التفاصيل الخاطئة، والروايات المزيفة، إضافة إلى عدد لافت من القصص المزورة والتافهة. في الخامس عشر من نيسان/ أبريل 1912، مثلا، كتبت صحيفة "بالتيمور ايفننج صن" عنوانا بالخط العريض: "نجا جميع ركاب تيتانيك". وفي الثالث من تشرين الثاني/ نوفمبر 1948، زعمت صحيفة "شيكاغو ديلي تريبيون" أن "ديوي يهزم ترومان"، وفي أيار/ مايو 1983، أعلنت صحيفة "التايمز" على صدر صفحتها الأولى أن "يوميات هتلر السرية سوف تنتشر". ومثلما عرف معاصرو هذه الأحداث بعد وقت قليل من نشر هذه

القصص، فقد غرق 1500 شخص مع "التيتانيك"، وهزم هاري ترومان ديوي في الانتخابات، وكتب يوميات هتلر السرية - بدلا منه - محتال ألماني يدعى كوني فيشر.

في هذه الأيام، تعترف الصحف الرصينة والمحترمة بأخطائها وتصححها حالما تستطيع. كما تقر بأن مثل هذه القصص نتجت عن بشر خطائين عانوا من ضغوط قوية ولم يتمكنوا من الوصول إلى المصادر جميعا. في الحقيقة يتعذر منع الأخطاء، وهي تقع ضمن واحدة من الفئات الست التالية:

- أخطاء التفاصيل - أسماء، أعمار، عناوين.. الخ
- أخطاء السرد - جزء مزيف من رواية صادقة لولاه.
- الخداع والتلفيق - حيث تكون القصة خيالية وكاذبة برمتها.
- أخطاء السياق - خلفية مزورة أو مفقودة تسبب رواية كاذبة.
- أخطاء الإهمال - رواية مضللة نتيجة فقدان جزء منها.
- أخطاء التفسير - حيث يكون حاصل جمع اثنين مع اثنين خمسة!

والصحف الرصينة، مثل "شيكاغو تريبيون"، تتبع أيضا نظاما لتسجيل ومتابعة الأخطاء، وتحاول تصحيح عملياتها الناجمة عنها. لقد تعلمت مثل هذه الصحف الكثير عن كيفية حدوث الأخطاء ومن يرتكبها. وفي الحقيقة، لا يتفوق أحد في مهنة الصحافة على المراسلين (كمجموعة) في ارتكاب الأخطاء. فتبعا لعملية مسح أجريت في "الغارديان" و"فورت ورث ستار - تلغرام" في تكساس، تبين أن المراسلين تسببوا في نصف الأخطاء التي نشرت (بينما كان محررو الإعداد مسؤولين عن خطأ واحد من بين كل خمسة). يمثل ذلك رؤية مهمة بالنسبة للصحف، وأكثر أهمية بالنسبة للكتاب الأفراد؛ إذ لا شيء يدمر سمعة المراسل الصحفي بصورة أسرع (أو أشمل) من سجله في التسبب بالأخطاء.

على المراسلين المهتمين بعدم ضمهم إلى هذه الفئة أن يدركوا أمرين اثنين. أولا، إن دقة تقاريرهم وصحة رواياتهم مسؤوليتهم هم، ولا يمكن نقلها أو

تحويلها إلى باقي حلقات سلسلة الإنتاج، مثل محرري الأخبار أو الإعداد. ثانيا، ينبغي أن يدربوا أنفسهم على الانتباه لكيفية تسلل الأخطاء إلى عملهم، بحيث يصبح التدقيق في مثل هذه الكمائن المحتملة عادة راسخة فيهم. ولا ينبغي عليهم الاكتفاء بالتعلم من أخطائهم فقط، بل من أخطاء الآخرين أيضا. وعليهم عند قراءة تصحيح في صحيفة أن يفكروا بكيف ولماذا حدث ذلك.

الأخطاء

هنالك ثمانية أسباب رئيسة للأخطاء في القصص والتحقيقات والتقارير الصحفية:

معلومات مزورة من المصدر

لا أوافق على مقولة إن المراسل لا يستطيع فعل الكثير فيما يتعلق بالمعلومات الخاطئة حول الحقائق البسيطة، مثل الأسماء والتواريخ والأعمار. فبمقدورك التأكد والتحقق منها والتدقيق فيها. اسأل نفسك: هل المصدر في موقع يؤهله لمعرفة ما يبلغك به؟ وانتبه للأدلة والمفاتيح التي تشير إلى عدم اليقين ("أعتقد..."، "من المحتمل..."، "هذا ما قيل لي.." ..الخ). هل تبدو المعلومات معقولة وجديرة بالتصديق؟ غالبا ما يكفي تأمل بسيط ليؤكد لك أنها غير معقولة. مصدر الخطأ الآخر هنا هو أخذ المعلومات المقدمة لك (ربما في خضم حالة ما تزال غامضة) وعرضها بوصفها حقيقة من مصدر لم يكشف عن اسمه، بدلا من أن تكون محل اختلاف وجدل بين المصادر. هذا هو سبب الخطأ في التقرير حول "التيتانيك"، فقد حصلت الصحف على توكيدات موثوقة من الشركة المالكة للسفينة ("وايت ستار لاين")، ولم تنسبها إليها حين ذكرت أن الركاب قد نجوا جميعا.

عدم تدوين الملاحظات بشكل واضح

الملاحظات المدونة بطريقة سيئة ومتعجلة - بدءا بالاختزال المخل وانتهاء بالكلمات الطويلة المتصلة الحروف وغير الواضحة - تؤدي غالبا إلى قصص

وتقارير بعيدة عن الدقة. لقد آن الأوان لتكتب ملاحظاتك بخط واضح مقروء. ولا تحاول أن تخمن معنى الكلمات غير الواضحة التي نقلتها عن المصدر - اسأل عنها مرة أخرى. ولن تجد صعوبة في ذلك كما تظن. وتعلم أن تسأل عن تهجئة الأسماء الصحيحة.

عدم التحقق والتثبت من "الحقائق" ومراجعتها مع المصادر

غالبا ما يبلغك مصدر بمعلومة تناقض ما قاله مصدر آخر، تحقق منها، مرتين وثلاثا، إذا كان ذلك ضروريا. الأمر نفسه ينطبق على العمل انطلاقا من الوثائق. فبضع ثوان تقضيها في التحقق من صحة الأرقام والأسماء التي نسختها توفر عليك متاعب ومشكلات لا حصر لها.

الإحجام عن التدقيق في الحقائق أو التطورات "المثيرة"

هنالك شعور من الرضى عن النفس يشكل جزءا من ثقافة الصحافة ويمنع المراسلين من التدقيق بعناية في الأجزاء الشائنة والفظيعة من القصص والأخبار والتقارير، كيلا ينكرها أحد أو يقلل من إثارتها. مثل هذه الحماقة الخطرة تناقض الخبرات والتجارب التي تراكمت عبر الأجيال، وأكدت أن قلة قليلة من القصص تظل على حالها الصريح أو المباشر أو المحدد أو الفظيع، كما بدت للوهلة الأولى. إن لم تكن تتمتع بالقدرة الفطرية على التشكيك (الإيجابي)، فحاول اكتساب شيء منها.

عدم مراجعة القصة بعد كتابتها

كلنا نرتكب أخطاء طباعية حين نعمل بسرعة، كما أننا نفكر بـ"حقائق" لا تدعمها الملاحظات التي قمنا بتدوينها. لكن المراجعة لدقة الحقائق (إضافة إلى تلك التي نجريها على الأسلوب، ولحذف العبارات المسيئة.. إلخ) يمكن أن تمنع العديد من هذه الأخطاء.

تجاهل الشعور بالقلق الذاتي من القصة

كل مراسل متمرس يشعر بالقصة "المثيرة"، التي ستحتل عناوين الأخبار، لكنه يحس ببعض القلق تجاهها. "لا تبدو صادقة تماما.."، "لا تتناسب مع ما أعرفه عن العالم.." الخ. الخطأ يكمن في الاستمرار قدما، والظن بأن الحذر سوف يحرمك من مجد الصفحة الأولى. بدلا من ذلك كله، لا تتجاهل تلك الشكوك. فسوف تثبت صحتها في معظم الحالات. معظم الأخطاء التي ارتكبتها نتجت عن عدم إصغاء الأنا المتفاخرة المتباهية لحكمة الشكوك التي يطلقها الصحفي المتواضع العاقل القابع داخل رأسي.

إغفال الحقائق التي لا تتواءم مع النظرية المتبناة مسبقا (أو المتبناة بتسرع ودون تمحيص)

إن اتخاذ القرار المتعلق بوضع معين قبل معرفة جميع الحقائق (رغم استحالة معرفتها جميعا) واحد من الشراك الخطيرة التي ينبغي على الصحفي الكفاح دائما لتجنبها. فهو خطر ماثل على الدوام يهدد قصص وتحقيقات وتقارير الأحداث الكبرى، نظرا لتعاظم الضغط الذي يدفع لتقديم رواية تشمل كل الحقائق على ما يبدو، وتفسير جاهز للحادث في آن معا. المثال التقليدي على ذلك أعمال الشغب في سجن سترينجوايز في مانشستر (انظر الفصل 11).

التسرع في النشر

هذا هو الخطأ الذي صاحب قضية يوميات هتلر. فالتلهف على حماية حقوق النشر الحصرية (الذي فاقمه الاعتقاد السائد ضمن وكالة "نيوز انترناشيونال" بأن هدف الصحافة الغائي هو الترفيه وليس الحقيقة)، أدى إلى نشر القصة قبل إجراء التدقيق العلمي للوثيقة. هذا الخوف من خسارة السبق الصحفي دفعمردوخ(*) إلى التعجل بإجازة النشر، بالرغم من التوجس القوي

(*) روبرت مردوخ (ولد عام ١٩٣١): ناشر أمريكي (من أصل أسترالي) ومؤسس ورئيس "إمبراطورية" "News International Communications"، كما يملك العديد من الصحف الكبرى في أستراليا وبريطانيا والولايات المتحدة، إضافة إلى عدد من الشركات السينمائية والمحطات التلفزيونية. (م)

الذي عبر عنه كبار الصحفيين في "صنداي تايمز". إن مآزق التعجل في نشر قصة تبدو أكثر صدقا من الأدلة التي تثبت صحتها، تمثل سببا متكررا للأخطاء الفادحة في القصص الكبيرة والصغيرة. العبرة واضحة لا لبس فيها - لا تنشر الخبر إلا بعد التأكد من صدقه وصحته.

(لاحظ عنصر غياب الضعف وقلة التجربة عن هذه اللائحة، لأنهما من الأعذار التبريرية للأخطاء، لا من أسبابها).

أخيرا، بالنسبة للمراسلين الذين يظنون أن أهمية الدقة لا تستحق هذا القدر من التوكيد، نقدم هذه القصة المحزنة التي ظهرت في "سي - فيل ويكلي"، وهي من صحف الإثارة (الصغيرة الحجم) التي توزع في مدينة شارلوت فيل (بولاية فيرجينيا). القصة تدور حول اكتشاف إحدى السيدات التي تتدرب في ناد للصحة البدنية أن المرايا المثبتة في غرفة تبديل الملابس ذات اتجاهين للرؤية. الصحيفة نشرت أيضا صورا ورسوما بيانية، وتطرقت بأسلوب ظني وتخميني (من خلال الاقتباس من أحد الأطباء النفسيين) إلى دوافع الشخص الذي وضع مثل هذه المرايا ليسترق النظر منها. ثبت أن القصة صحيحة في جميع تفاصيلها، لأن صاحب النادي وجد ميتا بعد خمسة أيام في إحدى الحدائق القريبة، ويبدو أنه انتحر. يصعب التفكير بالعواقب بالنسبة للمراسل لو تبين أن القصة غير صحيحة. أما العبرة فهي تذكرة بأن عليك التأكد من قصتك نظرا لأنك لن تعرف التأثيرات التي ستخلفها.

كيف تستجيب للأخطاء؟

الجواب: "بسرعة وصراحة". وهذا ينطبق إلى أقصى درجة على الحالة التي تدرك فيها خطأك قبل أن يكتشفه الآخرون (وهي الحالة الغالبة). تحرك بسرعة - فلربما تستطيع تصحيح الخطأ قبل نشر القصة، أو تصحيحه بين الطبعات (كما في الصحف الكبرى). وحتى إن فات الأوان، فإن الاعتراف العاجل (وإذا كان الخطأ فادحا، الاتصال بالمصدر المعني) سوف يساعد على

التخفيف من شدة العواقب على الصحيفة من الناحية القانونية، وعليك شخصيا. تجربتي تشير إلى أن الصحفيين الذين يعترفون بسرعة بأخطائهم (بشرط ألا تكون فادحة) ويتحملون المسؤولية ينقذون سمعتهم من مزيد من الأضرار مقارنة بأولئك الذين يبقون في الظل منتظرين افتضاحها. هؤلاء هم الذين يطردون من عملهم.

مع وصول الشكاوى من خارج الصحيفة، يجب أولا التأكد من أن الخطأ خطأ بالفعل. فغالبا ما تلجأ المصادر إلى الخداع، خصوصا أولئك الذين سبب لهم انفتاحهم معك مشكلات داخل مؤسساتهم. وكثيرا ما ثبت أن العديد من المزاعم، لا سيما تلك المتعلقة بالخطأ في الاقتباس، ليست سوى محاولات من المصادر للتغطية على ما صرحوا به.

ما إن يتم التثبت من الخطأ بصورة قاطعة، حتى يصبح من الضروري الإسراع بنشر التصحيح، ومن الأفضل في مكان منتظم ومحدد. بعض الصحف، مثل "موبيل ريجستر" في الاباما، تنشر كل التصويبات في الصفحة الأولى. في صحيفة "بلين ديلر" في كليفلند، ينشر التصحيح في أقرب مكان ممكن من الموقع الذي ظهر فيه الخطأ الأصلي ويفهرس على الصفحة الثانية. "اوغستا كرونيكل" تتبع الأسلوب نفسه، وإذا ظهر الخطأ على الصفحة الأولى، ينشر التصحيح على الصفحة نفسها. مثل هذه السياسات والأساليب ليست اعترافا بالضعف، بل هي دليل على الشجاعة والأمانة والاهتمام بإبلاغ القارئ بالحقيقة.

(السرعة فضيلة أخرى في تصحيح الأخطاء، لكن في مناسبات قليلة، لم يمنع أو يعيق الصحف عن هذه الممارسة مرور الزمن. في عام 1920، سخرت "نيويورك تايمز" علنا من البرفسور روبرت غودارد، رائد استكشاف الفضاء، لزعمه بإمكانية تشغيل الصواريخ في الفراغ. وبعد تسعة وأربعين عاما، حين حملت مركبة الفضاء "ابولو11" أول إنسان إلى سطح القمر، نشرت "التايمز" ما يلي: "لقد تأكد الآن بشكل قاطع أن الصواريخ قادرة على العمل في الفراغ. و-

التايمز- تعتذر عن خطئها". لكن الزمن القياسي هو 199 عاما التي مرت بين تاريخ نشر "الابزوفر" اللندنية أن موزارت قد توفي في الخامس من كانون الأول/ ديسمبر 1791، وبين تصحيح الخطأ [توفي الموسيقار الشهير في الثالث من ديسمبر] الذي نشرته في أوائل عام 1991).

الأمانة ليست الدافع الوحيد وراء التصحيح والاعتذار. إذ إن تجنب التعرض للدعاوى القضائية يشكل أيضا سببا قويا للتعجيل بهما. قبل بضع سنين، ظهرت العبارات التالية في إحدى الصحف الأيرلندية: "في عدد "صنداي برس" الصادر بتاريخ 18/ 3/ 1990، ظهرت صورة بروينسياس دي روسا وكتب تحتها "the prospective monster" (حرفيا: المسخ المحتمل). ويجب تصحيح ذلك ليصبح "the prospective minister" (الوزير المحتمل)". على نحو مشابه، نشرت إحدى الصحف الإنكليزية المحلية التصحيح التالي لتقرير من المحكمة: "ورد في التقرير العبارة التالية -أب ينطح ابنه-، والصواب هو: - أب ينطح الشخص الذي هاجم ابنه -".

يمكنك أن تستشعر الإجراءات القانونية المحتملة ضد هذه الصحف وأنت تقرأ هذه التصويبات. ومما لا شك فيه أن رؤساء التحرير الذين أمروا بنشرها كانوا على علم تام بأن سرعة نشر التصويب يمكن أن تساعد في تجنب التعرض لدعوى بالتشهير، أو على الأقل تشكل جزءا من الدفاع اللاحق.

وجد غيلبرت غرانبرغ، محرر صفحة الافتتاحية السابق في صحيفة "دي موين ريجستر"، الذي قام بعملية مسح شملت 164 دعوى قذف وتشهير عام 1987، أن معظم الذين رفعوا مثل هذه الدعاوى لم يكونوا يريدون المال أصلا. بل أرادوا تصويب الأخطاء، ولم يلجؤوا إلى المحاكم إلا بعد أن تجاهلت الصحف مطالبهم.

لكن، على الصحيفة أن تتذكر الخطأ وتصححه بمبادرة منها، قبل أن تضطرها إلى ذلك مذكرة من أحد المحامين. ولا حاجة بها للتذلل، أو إطلاق

الوعود بعدم تكرار الخطأ، أو الاعتذار، أو تقديم تفسير حول ما عانى منه المحرر ومساعدوه تلك الليلة بسبب رداءة الجو مثلا! هنالك بعض المطبوعات، مثل "أمريكان لوير"، تسمي المراسلين والمحررين الذين ارتكبوا الأخطاء. في حين أن غيرها، مثل "سان هوزيه ميركيوري نيوز"، فعلت العكس، حيث حذفت كل كلمات وعبارات اللوم (مثل: ".. بسبب خطأ في التحرير.. الخ). كما أن هناك - في مكان ما - حدودا لما يمكن تصويبه. على سبيل المثال، ذكرت صحيفة "بوسطن غلوب"، في اليوم التالي على نشرها مراجعة لأحد أفلام الرسوم المتحركة الجديدة، أنه "في مراجعتنا للأفلام يوم أمس تبين أن العبارات التي قالها القط سيلفستر قد نسبت خطأ إلى البطة دوفي".

أخيرا يسهل تصويب الأخطاء المتعلقة بالحقائق الواقعية؛ أما ما تعلق بغيرها فهو أقل سهولة. والعديد من الشكاوى الموجهة إلى الصحف تتركز على السياق غير الصحيح أو المفقود، أو على حذف عنصر يغير القصة بمجملها أو الانطباع الذي تتركه. ومن أجل هذه، يمكن للصحف أن تفرد مساحة في صفحة الرسائل، أو (في حالات أقل شيوعا) في أعمدة التعليقات. وللتعامل مع مثل هذه الحالات، تنشر صحيفة "نيويورك تايمز" "ملاحظات المحررين" لكي "تفسر المقالات أو تصحح ما يعتبره المحررون زلات أو أخطاء مهمة في النزاهة، أو التوازن، أو المنظور". وهي تنشر حوالي خمس وعشرين منها كل سنة. إنها وسيلة مفيدة تستحق أن تستنسخ على أوسع نطاق.

أكاذيب وخداع الصحف الكبرى

في عام 1976، ظهر الإعلان الدعائي التالي في صحيفة "فيليج فويس" النيويوركية:

ماخور للكلاب

يعرض تشكيلة مختارة من الإناث الشبقات، من مختلف السلالات (بدءا بكانيش الفرنسية وانتهاء بالهجينة). يتوفر طبيب بيطري

ومساعد. إضافة إلى خدمات الإنسال والتصوير. للكلاب فقط. لا يسمح بدخول الكلاب الشرسة. للحصول على موعد، اتصل على الرقم 2547878.

في نفس اليوم أصدرت "الإدارة" نشرة إعلامية، وما إن شاع الخبر حتى تدفقت اتصالات أصحاب الكلاب. وبدأت محطة "ايه بي سي" (ABC) تصوير فيلم وثائقي عن الموقع، في حين انهالت طلبات الصحفيين لزيارته، ثم أخذت القصة منحى آخر. الجمعية الأمريكية لمنع القسوة ضد الحيوانات طالبت بإغلاق الماخور، وكذلك فعل مكتب شؤون الحيوانات، وشرطة الآداب، ومكتب المحافظ، ومختلف الهيئات المهتمة بالشؤون الدينية والأخلاقية. الجدل الخلافي احتدم وانتقل إلى صفحات الجرائد. بل إن المدعي العام الأمريكي أرسل مذكرة استدعاء للمثول أمام المحكمة إلى عنوان المكان بتهمة إدارة ماخور للكلاب بشكل غير قانوني! عند هذه النقطة، ظهر جوي سكاغز، الرجل الذي يقف خلف كل القضية ليعلن أن الأمر كله خدعة!

مثل هذه المحاولات الهادفة لخداع الصحافة ليست نادرة كما يظن الصحفيون. فقد كان للمتعجلين والمتهورين، والفوضويين، والباحثين (والباحثات) عن المال والثراء، والعابثين الهازلين، تاريخ متخم بقصص الاحتيال والخداع والمزاح التي وجدت طريقها للنشر على صفحات المجلات والجرائد الأولى. الوثائق المزورة حققت نجاحا لافتا على وجه الخصوص. يوميات هتلر خدعت صحيفتي "تايمز" و"صنداي تايمز" ومجلة "شتيرن" وغيرها؛ "مذكرات" هوارد هيوز (التي كتبها فعلا كليفورد ايرفنغ) غشت مجلة "لايف" فدفعت 250 ألف دولار ثمنا لها؛ رسائل تشارلز ستيورات بارنيل التي عبرت عن موافقة الزعيم الوطني الأيرلندي على الجرائم السياسية ألحقت المهانة والإذلال بصحيفة "التايمز" حين ثبت أنها مكتوبة بواسطة رجل يدعى بيغوت للحصول على المال؛ رسالة زينوفييف التي أظهرت أن حزب العمال البريطاني عبارة عن

"واجهة" لموسكو صدقتها بكل حماس صحيفة "ديلي ميل" ونشرتها يوم إجراء انتخابات عام 1924. ثم تبين أنها مزورة. كل هذه حالات معروفة وأمثلة مشهورة، لكن الأكاذيب والحيل الأخرى تستحق الدراسة والمراجعة.

الصراصير المقاومة للإشعاع

في أحد الأيام، اتصل الدكتور جوزيف غريغور، عالم الحشرات الشهير، بوكالة "يونايتد برس انترناشيونال" وأقنعها بأنه طور سلالة من الصراصير المقاومة للإشعاع النووي. وأن بالإمكان استخدام الهرمونات المستخلصة منها لمعالجة التهاب المفاصل، وحب الشباب، وفقر الدم، إضافة إلى حماية البشر من الإشعاع. أما الخبر الذي أرسلته الوكالة إلى وسائل الإعلام العالمية فكان: "هرمونات الصراصير عقار سحري معجز". وبالطبع، لم يكن الدكتور غريفور سوى ملفق قصة ماخور الكلاب، جوي سكاغز!!

فرقة موسيقية من أربع فتيات عاريات الصدور

خدع عدد كبير من الصحف الأمريكية عام 1967 بقصة عن جولة قادمة تقوم بها فرقة موسيقية فرنسية مكونة من عازفات عاريات الصدور. أما مصدر هذا الهراء فكان رجلا يدعى آلن ابيل، حيث أرسل نشرات إعلامية تزعم أن العازفات بحاجة للعزف "بدون ثياب" من أجل "ألحان ونغمات نقية تخترق الحواجز". كما استأجر أربع عارضات ألبسهن عباءات بيضاء لالتقاط صور معهن بغرض الدعاية. بعد أن ظهرت القصة، تدفقت الدعوات من جميع أنحاء أمريكا، بل إن إحدى شركات الموسيقى عرضت عقد تسجيل وطبع معزوفات الفرقة!

أول أقوال المسيح

في أيار/ مايو 1991، نشرت صحيفة "فانينشال تايمز" مقالا مطولا حول اكتشاف ما بدا أنه واحد من أوائل النصوص الباقية من أقوال السيد المسيح. ولم تدرك الصحيفة إلا بعد نشر المقال أن اسم المكتشف المزعوم للقِيّة التي لا تقدر بثمن هو باتسون دي. سيلنغ.

جمعية "حشمة" الحيوانات العارية

القصة واحدة من أعقد الخدع الصحفية المعروفة، أما ملفقها فهو آلن ابيل. فقد "اخترع" الجمعية عام 1959، واستأجر ممثلا عاطلا عن العمل اسمه بوك هنري لتمثيل دور المؤسس الوهمي، جي. كليفورد براوت (الابن)، الذي ظهر في برنامج "ان. بي. سي" "توداي شو"، ليطالب بارتداء جميع الحيوانات التي يتجاوز ارتفاعها أربع بوصات ملابس محتشمة! كما استأجر مجموعة من الأشخاص للاحتجاج أمام البيت الأبيض، بل خصص خطا هاتفيا وعامل بدالة لتلقي المكالمات. العديد من الصحف نشرت الخبر. أما القصة الكاذبة ف ahvj أشارت إلى أن الجمعية قد تأسست بمال ورثه براوت عن أبيه. الأمر جذب انتباه مصلحة الضرائب. وطالبت خدمة الإيرادات الداخلية بدفع الضرائب المستحقة عليه. وحين لم تتلق ردا، زار موظفوها مكاتب الجمعية، فوجدوا خزانة للمكانس، وأدركوا أن الأمر خدعة. وتحول بوك هنري لأداء أعمال أخرى، وشارك في مسلسل تلفزيوني، ثم أصبح كاتبا وممثلا ناجحا في العديد من المسلسلات التلفزيونية والأفلام سينمائية.

النقطة المحورية في نجاح كل هذه الخدع والحيل هي الفشل في التحقق والتدقيق، أو تصديق النشرات الإعلامية تبعا لقيمتها الظاهرية، أو الاتصالات القادمة من "مصادر" جديدة موثوقة ومعقولة ظاهريا. إن منع مثل هذه المحاولات الخداعية من الوصول إلى صفحات الجرائد يجب أن يرتبط ارتباطا مباشرا بعدم السماح لرغبتك بنشر اسمك فوق مثل هذه القصص أن تكتسح الحذر البسيط، وطرح الأسئلة، وطرق بعض الأبواب الأخرى. ومن الأسهل خداع المراسلين الذين لا يغادرون مكاتبهم.

الأموال التي دفعت لمثل هذه القصص من قبل بعض الصحف الشهيرة والواسعة الانتشار (تنفق صحيفة "صن" ملايين الجنيهات كل سنة على شكل

أجور للمصادر والمراسلين المستقلين) كبيرة وباهظة إلى درجة أن هناك بعض الأشخاص المحترفين الذين يكسبون رزقهم من الاحتيال على الصحف وخداعها. أشهرهم ربما روكي ريان، رجل المخاطر (في الأفلام السينمائية)، الذي انتحل أسماء مستعارة عديدة، منها ميجور ترافيس، بيتر بيرنستاين، ديفيد اوبنهايمر، روكو سالفاتوري، وغيرها. استطاع ريان أن يبيع صحيفة "بيبول" (صحيفة واسعة الانتشار تصدر يوم الأحد من كل أسبوع) قصة حول حفلات الجنس والمخدرات المعربدة التي تقيمها بعثات تسلق جبال الهيملايا. كما باع إلى وسائل إعلام أخرى قصة تقول إن غورباتشوف استقال قبل سنتين من استقالته العلنية (مما أدى إلى خسارة ملايين الدولارات على أسواق صرف العملات الأجنبية)، إضافة إلى أخرى تؤكد أن السكرتير الخاص لهتلر، مارتن بورمان، حي يرزق ويعيش في كيبوتز داخل إسرائيل. وتبين طبعا أن جميع هذه القصص كانت كاذبة.

جنى روكي ريان 18 ألف دولار من تلفيق قصة تؤكد أن لديه نسخة مسجلة لحديث هاتفي دار بين تشارلز والأميرة ديانا، ثم أغرى الصحف بشرائها. وأوعز لممثلة يعرفها أن تتصل بصحيفة "بيبول" لتقول إن صديقا لها في المخابرات البريطانية يريد التحدث حول العائلة المالكة. وأعطت الصحيفة رقم هاتف لشقة في حي لندني راق، وحين اتصلت الصحيفة، رد على الهاتف صديق آخر قال إنه يعمل لحساب المخابرات. وأضاف بأن دائرته تتنصت على هاتف الأمير تشارلز. وإنه على استعداد لبيع نسخة عن المحادثة الهاتفية مقابل 7500 دولار. اشترت الصحيفة النسخة، كما فعلت صحف أخرى. أما السبب وراء سقوطها في الفخ فهو أن المحتالين والنصابين كانوا يقدمون لها قصة ترغب هي بتصديقها - الخدعة ذاتها التي ظلوا يمارسونها على مر القرون.

"الصحافة تقيم توازنات مؤقتة وتعطي الفوضى نظاما ضمنيا. وهما خطوتان بالاتجاه المعاكس للواقع الحقيقي".

توماس غريفث

obeikandl.com

مبادئ الأخلاق

"الموهوب الذي لا يهتم بالمال يصعب ترويضه"

اليستر كوك، هيئة الإذاعة البريطانية

بالنسبة لمن هو خارج المهنة، تعتبر الصحافة ومبادئ الأخلاق خلطة متنافرة ومتناقضة. وحتى عند وضع المفهومين في جملة واحدة هنالك مخاطرة بدفع القارئ إلى الضحك والسخرية.

وبالنسبة للصحفيين العاملين في صحف الإثارة الشعبية ("التابلويد"، التي تصدر بنصف الحجم العادي) تعتبر مبادئ الأخلاق عموما غير ذات صلة. فالمحررون، المعرضون لضغط المنافسة الشديدة على اجتذاب القراء، يطالبون الصحفيين والمراسلين بتجاوز حدود المبادئ الأخلاقية؛ والمنافسة بين هؤلاء تشجع بعضهم على الموافقة. أما إلقاء محاضرات عليهم حول المبادئ الأخلاقية فأمر لا جدوى منه، كمطالبة البحارة بالتبتل عند وصولهم إلى الميناء بعد قضاء ستة أشهر في عرض البحر.

أما بالنسبة للصحفيين العاملين في الصحف الرصينة، حيث هناك إجماع كامل حول الأخلاقيات المهنية الأساسية، فتعتبر المبادئ الأخلاقية بمثابة قواعد للسلوك المبدئي يجب أن يلتزموا بها جميعا، أو على الأقل أن يشعروا بالذنب عند الخروج عليها. ومن النادر - بل من المستحيل - أن يطلب منهم ذلك.

obeikandl.com

لكن الظروف الشخصية تفرز تجارب وخبرات تجعل من الصعب تمييز وإدراك مختلف المبادئ الأخلاقية المستخدمة باعتبارها شيئا واحدا، وينطبق ذلك على الجانب الأخلاقي أكثر من جميع جوانب المهنة الأخرى. أما السبب فهو أن هذه المبادئ، كما تمارس فعلا، مشروطة بالثواب والعقاب في أي صحيفة، أكثر من اشتراطها بالأخلاق. على سبيل المثال، تقدر قيمة الصحفي، وأجره، وترقيته في صحف الإثارة الواسعة الانتشار في بريطانيا (أو الوكالات التي تخدمها)، تبعا لعدد القصص المثيرة، وربما الاقتحامية والمغيرة، التي كتبها. ولا تطرح أسئلة عديدة حول كيفية الحصول عليها أو درجة المبالغة فيها. وفي الحقيقة، فإن المسؤولين في أقسام الأخبار، أو كبار المحررين، غالبا ما يحددون لمراسليهم الخط الذي يريدونه، بغض عن أي تحفظات يبديها هؤلاء. ولا مكان للرجل المثالي هنا. على الطرف النقيض من ذلك، يحكم على المراسل - في الصحيفة الأمريكية التي تحتكر الأخبار والمعلومات، وتشارك مصادرها وقراءها المدينة نفسها - ويكافئ تبعا لمعيار مختلف، حيث تلعب المبادئ الأخلاقية دورا أكبر بكثير في حياته.

العامل الرئيس الذي يحدد - في نهاية المطاف - ماهية المبادئ الأخلاقية الممارسة فعلا هو المنافسة. في حالات الاحتكار، تعلم الصحف بأنه لا يوجد منافس يسرق منها السبق الصحفي، وليس لدى القارئ من بديل يلجأ إليه - باستثناء مقاطعة الصحف كلها. إن غياب المنافسة يمنح الصحفيين "استرخاء" أخلاقيا مترفا يجعله قادرا على المطالبة معايير أكثر مثالية للأخلاقيات المهنية. أما في السوق التي تشتد فيها المنافسة وتسودها ثقافة الجسارة والإقدام، فإن المانع الوحيد أمام ما ستفعله الصحيفة للحصول على القصة، أو نشرها حالما تحصل عليها، فهو احتمال إزعاج ومضايقة القراء، خصوصا إلى حد امتناعهم عن شرائها. عند ذلك فقط تصدر التعليمات إلى الصحفيين والمراسلين، ووكالات الأنباء الصغيرة التي تزودهم بالمعلومات، بأن الأوان قد حان للتوقف (ولربما بشكل مؤقت وحسب) عن سرقة الصور من المحزونين

والمفجوعين بفقد أعزائهم، واقتحام المستشفيات التي تعالج فيها الشخصيات الشهيرة، ونشر صور أطفال الأسرة المالكة في لحظات حميمة، وإدانة جمعية أو مجتمع محلي بتهمة ممارسة العنف دون بينة كافية.. الخ. في صحف الإثارة الصغيرة الحجم (التابلويد) على وجه الخصوص، لا تأتي نوبات التمسك الدورية بالمبادئ الأخلاقية إلا من أصحاب الصحف الذين يعرفون تماما أن بمقدور القراء، أو هم على وشك، شراء صحيفة أخرى. أو أن الحكومة توشك على مقاضاة الصحيفة.

لكن للصحفيين سلطتهم أيضا. فهم ليسوا مجرد كائنات مجبرة وخاضعة للصحف التي يعملون فيها؛ بل يملكون القدرة على الاختيار. ومثلما يستطيع القارئ التوقف عن شراء الصحيفة، يمكن للصحفي تغيير صحيفته. بمقدوره أن يقرر بأن هناك أمورا لن يفعلها، ويصمم على ترك العمل في هذه الصحيفة - إما سرا، بعد العثور على وظيفة في صحيفة أخرى، أو علنا، في فورة "أخلاقية فاضلة" من السخط والنقمة. ولو زاد عدد من يلجأ إلى هذا الأسلوب منا، وتمكنا من توضيح السبب وراء ذلك، لأصبحت الصحافة أفضل حالا.

هذا العنصر من الخيار الأخلاقي، الفاصل والمميز بين السلوك الذي تنتظره منا الصحف العاملة تحت ضغط العوامل التجارية، وبين السلوك النابع من خيارنا، يفسر السبب الذي يجعل للمبادئ الأخلاقية غرضا يوميا - أو بالأخرى، غرضين اثنين. أولا، إيجاد نوع من البوصلة الأخلاقية، تشير إلى مدى انحرافنا عن المسار المطلوب والمرغوب. على قدر علمي، يمكن العثور على الشمال المغناطيسي لمهنتنا في عبارات وجمل العقد غير المكتوب الذي يجب أن يوقع بين الصحيفة وقرائها:

- كل قصة في الصحيفة هي نتيجة قرارات متحررة من الضغوط السياسية والتجارية وغير التجارية.
- لا تنشر أي قصة بدافع المحاباة أو طمعا بالمال.

- كل القصص والأخبار مكتوبة ومحررة على أساس الاستقصاء الحر، ومنتقاة ومختارة للنشر تبعا لأهميتها بذاتها، بغض النظر عما إذا كانت واقعية أو متخيلة.

ثانياً، توفر المبادئ الأخلاقية دليلا هاديا عمليا لإنتاج صحافة آمنة وسليمة وجديرة بالتصديق. التعامل النزيه والابتعاد عن صراع المصالح، يمثلان بصدق أفضل الطرق وأكثرها أمانا لأداء العمل الصحفي. وهما كفيلان، على المستوى الأساسي، بتجنيب الصحفي دعاوى المحاكم ومساعدته على النوم الهانئ في الليل. وبرغم المخاطرة بالتسبب بصدمة للمراسلين الأكثر فظاظة وابتذالا، تمثل المبادئ الأخلاقية أكثر الطرق أدبا ولياقة لأداء العمل الصحفي، حيث تزودنا بالمواقف، تجاه القراء (والمصادر)، التي تعتمد على شيء من الحساسية ومراعاة مشاعر الآخرين الإنسانية، بدلا من مجرد الحسابات التجارية الماكرة.

من هذا المنظور، لا تعتبر المبادئ الأخلاقية مجرد إضافة اختيارية، بل هي جزء لا يتجزأ من جوانب العمل الصحفي كافة. لذلك يتعامل معها هذا الكتاب كما تمارس فعلا - في التعامل مع المصادر، وطرح الأسئلة، والكتابة.. الخ - وليس كعنصر نظري منفصل ومنعزل عن الفعل الإجرائي الحقيقي. لكن هناك بعض المبادئ العامة التي جرى تجميعها معا في هذا الفصل.

دلائل إرشادية عامة

على الصحفيين خدمة صحيفتهم وقرائهم فقط

إن أردت أن تكون بوقا دعائيا، اترك الصحافة واعمل في العلاقات العامة، أو السياسة. أما الصحفي فلا يدين بولائه لا لحزب سياسي، ولا مصدر، ولا مصلحة تجارية، ولا مصلحة غير تجارية، ولا قضية محددة، مهما كانت تستحق الولاء والإخلاص. من الصعب الوصول إلى صحافة متوازنة حتى

بدون صراع المصالح هذا. صحيفة "واشنطن بوست" تبنت مثلا مبدأ يؤكد على منع صحفييها من الانخراط في أي نشاط سياسي، وهذا يشمل المشاركة في المظاهرات. ولذلك، حين اكتشفت أن عددا من مراسليها قد شاركوا في مظاهرة تؤيد الحق بالإجهاض، منعتهم من تغطية أي حدث يتصل بقضايا الإجهاض.

الأخطار الناجمة عن السماح بالتحمس "التبشيري" لقضية معينة بتلويث التقارير الصحفية بعدواه، واضحة لا لبس فيها. ومن أشهر النماذج على ذلك، والتر ديورانتي، مراسل "نيويورك تايمز" في موسكو في عشرينات وثلاثينات القرن الماضي. فقد كان مبهورا بأيديولوجية الاتحاد السوفييتي الجديد لدرجة أن تقاريره كانت مجرد دعاية فجة في أغلب الأحيان. ففي ذروة المجاعة التي أصابت أوكرانيا (واتهم الغرب ستالين بالتخطيط لها لتحطيم المقاومة المحلية للسيطرة السوفييتية)، كتب ديورانتي مثلا عن "أسواق القرى المتخمة بالبيض، والفواكه، والدواجن، والخضار، والحليب، والزبدة"، التي تباع بأسعار أرخص من موسكو. وأضاف: "بمقدور كل شخص أن يرى بأن هذه ليست مجاعة بل وفرة"؛ ومنحته لجنة بوليتزر الجائزة، لعدم وجود منافس أفضل. في الحقيقة، توفي ملايين الناس، وعرف ديورانتي ذلك حق المعرفة، فقد كان يبلغ زملاءه سرا أن عدد الضحايا يقارب عشرة ملايين باعتقاده. أما مالكوم مغريدج، مراسل صحيفة "مانشستر غارديان" في موسكو آنذاك، فقد دعاه "أكبر كذاب عرفته من بين جميع الصحفيين".

ينبغي على كل قصة أن تكون بحثا صادقا ونزيها عن الحقيقة

كل قصة يجب أن تكون محاولة منفتحة وواسعة الأفق لاكتشاف ما حدث فعلا، مترافقة باستعداد ورغبة بنشر تلك الحقيقة مهما كانت جارحة ومناقضة للمعتقدات التي نؤمن بها نحن أو صحيفتنا. لذلك، يجب على الصحفيين رفض قبول العمل الذي يسعى لتدعيم وجهة نظر معينة ضد البينة والدليل، أو كتابة تقارير تستهدف تعزيز نظرية متبناة بشكل مسبق.

لربما تظن أن ذلك أمر بدهي لا يحتاج حتى لأن نذكره. لكنك تستطيع كل يوم قراءة تقارير تشوه وتحرف الحقائق لتواءم أطروحة معينة. ومن أسوأ الأمثلة التي ما زالت عالقة في الذاكرة ما فعلته صحيفة "صن" أكثر الصحف البريطانية اليومية انتشارا ومبيعا. فقد اقتنع رئيس تحريرها آنذاك، لأسباب لا يعرفها إلا هو، بأن الإيدز مرض لا يصيب سوى مدمني المخدرات والمثليين فقط. وفي عدة مناسبات جرى التلاعب بالإحصائيات الحكومية عن سابق إصرار وتصميم لدعم وجهة النظر هذه. أما المناسبة الفاضحة فكانت حين نشرت الصحيفة تحقيقا بعنوان "مسؤول حكومي: ممارسة الجنس الطبيعي يقيك من الإيدز"، ورد فيه، من بين الأشياء السخيفة الأخرى، أن فرص الإصابة بالإيدز من ممارسة الجنس الطبيعي [مع الجنس الآخر] "معدومة من الناحية الإحصائية. وكل ما عدا ذلك دعاية للشواذ والمثليين". في نهاية المطاف، دفعت الاحتجاجات العنيفة الصحيفة إلى الاعتذار - لكنها نشرته في أسفل الصفحة 28!

هذه الحالة، وهي ليست معزولة أو نادرة، مثلت تقريرا صحفيا خدع القراء، ولربما عرضهم للخطر. ولذلك، فإن النظريات المتبناة مسبقا لا مكان لها في مهنة الصحافة. وعلى الصحف خوض المعركة ضد العقول المغلقة، وليس استخدامها أو توظيفها.

ينبغي مقاومة كل الدوافع التي تغري بالنشر

هذا لا يشمل المال والهدايا فقط، بل الوعود بالحصول على المزايا أو الترقيات. وهو يعني على نحو خاص أمرين اثنين. أولا، الدعاية الخفية، حيث يحصل الصحفيون أو صحفهم على المال مقابل نشر كتابات تروج لشركات أو أشخاص، وتظهر في المقالات والافتتاحيات على شكل قصص عادية. في السنوات الأخيرة، أصبحت هذه الممارسة واسعة الانتشار في بلدان مثل روسيا. صحيح أن بمقدورنا تفهم إغراء كتابة دعايات خفية في أماكن تنخفض

فيها أجور الصحفيين، لكن ذلك لا يجعل منها صحافة. بل هي دعاية، علاقات عامة، تقريظ مبالغ فيه، خداع وغش وتدليس مضر (أو سمه ما شئت) تحت قناع الصحافة. فهو ينقض، أولا، العقد الأساسي مع القراء، حيث لا تنشر القصص والتقارير والتحقيقات، التي تدعي أنها مقالات عادية، إلا بدافع المال. ثانيا، يدمر مثل هذا الخداع الثقة التي يجب أن توجد بين القراء والصحف. ثالثا، تدفع الممارسة المحررين إلى التشكيك بأمانة صحيفتهم ونزاهة مراسليهم، والاشتباه بتلقيهم رشاوى للكتابة حول شركة معينة، بينما يجب أن تكون تقاريرهم وتحقيقاتهم وقصصهم أمينة ونزيهة. رابعا، سوف يستخدم المحررون والناشرون، مثل أصحاب الفنادق الذين يدفعون للندل مرتبات متدنية بسبب "البقشيش" الذي يتقاضونه، الدعاية الخفية كذريعة تبريرية لعدم دفع أجور مناسبة للصحفيين. خامسا، الممارسة ترسخ الظن بأن الصحفيين الذين يلجؤون إليها على استعداد "لتأجير" أقلامهم وعقولهم مقابل المال. ما الذي سيكتبون عنه مقابل المال في المرة القادمة؟ تحقيقات تحابي العصابات والمجرمين؟ استبعاد التقارير التي تفضح الأفعال المسيئة والأخطاء؟ كل ذلك لا يبعد إلا بمقدار خطوة عن جمع المعلومات بهدف بيعها والتهديد بما قد تسببه من خراب ودمار وقمع. بكلمة أخرى: الابتزاز.

(كيلا يظن أحد أن هذه خطة بارعة ومبتكرة لجمع المال، نورد المثال التالي عن ناشر أمريكي يدعى روبرت هاريسون كان "سباقا" في هذا المجال من خلال مجلة "كونفيدنشال" التي صدرت في خمسينات القرن الماضي. المجلة تخصصت في فضائح هوليود، ومن خلال دفع مبالغ مالية كبيرة للحصول على المعلومات والأسرار، حصل هو ومحققوه على كثير من التفاصيل الحميمة لحياة النجوم الخاصة. كانت كل قصة تنشرها معدة ومدروسة بعناية، ولم يهتم موظفو هاريسون بالأساليب والوسائل في سبيل الغايات. فقد اعتادوا استئجار العاهرات للإيقاع بالضحايا، وتسجيل وتصوير اللقاءات والاعترافات. زادت مبيعات "كونفيدنشال" لتبلغ في نهاية المطاف أربعة ملايين نسخة. لكن

سرعان ما ثبت أن إغراء بيع الصور الفوتوغرافية السلبية (النيجاتيف)، وأشرطة التسجيل، وغيرها من الأدلة إلى النجوم الأثرياء، بالغ القوة. وحدث المحتوم: انتحرت إحدى الموظفات في المجلة، وأطلق رئيس التحرير الرصاص على نفسه وعلى زوجته في سيارة أجرة في نيويورك، وباع هاريسون المجلة، وضاع الاثنان في غياهب النسيان).

الدعاية الخفية (التي يجب أن تدعى باسمها الحقيقي "دعاية"، وتعامل عند نشرها تبعا لذلك) نادرة جدا في البلدان المتقدمة. أما الممارسة الأكثر شيوعا فهي قبول الصحفيين بما يدعونه "الخدمة المجانية"، أي جولات مجانية وترفيهية من شركات تنظيم الرحلات والعطلات، ووجبات مجانية من المطاعم، أو تذاكر مجانية من المسارح، تقدم كلها للصحفيين الذين يكتبون عنها. الخطورة هنا تكمن في شعور الصحفي بأنه ملزم بكتابة مقال إيجابي. لكنه في الحقيقة ليس مضطرا لذلك، ويمكن تقليص الخطر إلى حد الأدنى، والمحافظة على الثقة مع القارئ من خلال الإشارة بوضوح، في مكان ما من المقالة أو في الهامش، إلى أن تذكرة/ رحلة/ وجبة قد قدمت مجانا للصحيفة.

يجب على الصحفيين عدم السماح للدعاية بممارسة تأثير، مباشر أو غير مباشر، في مضمون وتوجه الصحيفة

ليس من الأمور غير العادية، خصوصا بالنسبة للصحف الأصغر حجما والأقل ربحا، أو المحلية، أن يحاول المعلنون استخدام ثقلهم التجاري للتنمر عليها وترهيبها. لكن ينبغي مقاومة هذا الضغط دائما وأبدا. وهو يأتي عادة من قسم الإعلانات في الصحيفة الذي يبلغ رئيس التحرير بأن من المفيد أن يحظى هذا العميل المهم بـ"تغطية جيدة" لنشاطه. قبيل بضع سنين، نشرت صحيفة "ريفرسايد برس - انتربرايز" (التي تصدر في كاليفورنيا) إحدى عشرة مقالة واثنتين وعشرين صورة فوتوغرافية لمتجر جديد متعدد الأقسام اسمه "نورد ستروم" في مدة ستة أيام، خلال وبعد افتتاحه مباشرة. وظهرت

هذه الأعمدة (التي بلغت مساحتها الإجمالية 400 بوصة) في الأسبوع ذاته الذي نشرت فيه إعلانات للمتجر في عشرين صفحة كاملة. هل هي مصادفة؟ يستبعد ذلك.

في حالات أقل شيوعا، تعمل مجموعات من المعلنين بطريقة منسقة ومتناغمة لمحاولة إجبار الصحيفة على تغيير تغطيتها للأحداث. وحين استلمت منصب رئيس تحرير إحدى الصحف البريطانية المحلية، كان من أول الأشياء التي قمت بها إيقاف التقارير "الآلية" حول دعاوى السرقات من المتاجر لأنها منتشرة ومكررة إلى درجة السأم. وبخلال أسبوع، أبلغ جميع أصحاب المتاجر في المدينة الناشر بأنهم سيسحبون إعلاناتهم (وكانت ضخمة) إذا لم تستأنف الصحيفة نشر لتقارير عن سرقات ولصوص المتاجر. وقالوا إن التغطية شكلت رادعا لمن يفكر بالسرقة. من حسن الحظ أن الناشر دعم رأيي. ولم ينفذ المعلنون تهديدهم.

إن خطر الاستسلام لضغوط المعلنين، أفرادا وجماعات، يتمثل في إضعاف قدرتك على اختيار مضمون مقالاتك وتحقيقاتك بشكل حر. ولسوف تجد أيضا أن ما يمنح لمعلن سوف يطالب به كثيرون غيره. وما إن تذعن مرة، حتى يستحيل عليك التحرر من الضغوط.

لا تستخدم موقعك للتهديد أو للحصول على المزايا

يتمتع الصحافي بالقوة والنفوذ. ولا يجب أبدا إساءة استخدامهما، لا في مسار ما يكتبه، ولا في مجرى حياته اليومية. إن اللجوء في النزاعات الشخصية مع الآخرين إلى أسلوب التهديد بفضح أسرارهم أو نقلها إلى مسؤولين نافذين تعرفهم، لن يكون سوى تنمر وترهيب، ومن النوع الخطر أيضا. فكيف تستطيع كتابة تحقيق أو قصة في المستقبل عن شخص (أو مؤسسة) تعرض لتهديدك بهذه الطريقة؟ كيف يمكنك أن تكتب حول المسؤول الذي استخدمته في تهديدك؟ لسوف تظل مدينا له. لا تستخدم أوراق

صحيفتك (التي طبع اسمها عليها) لكتابة رسالة تطالب فيها بمعاملة تفضيلية، أو بتعويض عن إهمال مزعوم أو خدمة سيئة. فهذا يعني ضمنا للمتلقي أن صحيفتك توفر نوعا من الحماية الخاصة وغير الشريفة لموظفيها.

لا تقدم الوعود بتهميش وكتمان القصص من أجل الصداقة أو الحظوة

يحدث أحيانا أن يطلب منك أحدهم أن "تنسى" قصة ما، أو جزءا منها، مقابل مكسب أو حظوة، أو حتى المال. من الواضح أن قبول مثل هذه العروض خطأ فادح، تماما ككتابة قصة للحصول على هذه المزايا. حين يشمل الأمر أصدقاء لك، قد يكون التعبير عن الرفض أكثر صعوبة، لكن يجب أن يكون على القدر نفسه من السرعة والحسم. ولا تختلف الحال مع الزملاء، مثلما تبين القصتان التاليتان.

الأولى تأتي من اوريغون في الولايات المتحدة، حيث ذكرت إحدى محطات التلفزيون المحلية في تقرير لها قبل بضع سنين أن مدير موظفي ممثل الولاية الجمهوري في مجلس الشيوخ الذي بقي يشغل المنصب مدة طويلة، عمل مدة خمسة وعشرين عاما كمدير لمصرف انهار وكلف إنقاذه دافعي الضرائب الأمريكيين مائة مليون دولار. وكانت هنالك دلائل تشير إلى أن منصب الرجل في المصرف ربما أثر في موقف عضو مجلس الشيوخ حول خروج المصرف على الأنظمة والقواعد وعملية الإنقاذ اللاحقة. القصة نقلتها وكالة اسوشييتد برس وغدت حديث الناس في الولاية، لكن الصحيفة الرئيسة فيها، "اوريغونيان"، اختارت تجاهلها. كما أغفلت المزاعم التي ظهرت بعد أسبوع وأشارت إلى أن رحلات مدير الموظفين الرسمية، على نفقة دافع الضرائب، قد شملت 52 رحلة إلى نيويورك، حيث أصدر كتيبا إرشاديا سنويا حول المدينة كسب منه أكثر من مليون دولار.

تردد الصحيفة في نشر القصة ربما كانت له علاقة بحقيقة أن المدير يكتب عمودا أسبوعيا لها. وفي نهاية المطاف نشرت أجزاء من القصة بعد أن فضحتها صحيفة "واشنطن بوست" على المستوى الوطني.

لنقارن كل ذلك مع صحيفة تدعى "ديلي ايتم" تصدر في سودبري (بولاية بنسلفانيا). فمن بين التحقيقات والتقارير اليومية التي تنشرها من ملفات الشرطة (في عدد واحد)، هناك رواية لم تخضع لأي رقابة حول تهم وجهت لأحد مواطني البلدة بسبب قيادة السيارة بسرعة خطرة تحت تأثير الكحول. وشملت الرواية اسم الرجل، وعمره، وعنوانه، ومهنته - رئيس تحرير "ديلي ايتم". فأي صحيفة ستنال ثقة القارئ: "ديلي ايتم" أم "اوريغونيان"؟

لا تلفق أو تحسن المعلومات

تلفيق المعلومات عملية خطرة كما هو واضح. كذلك هو التحريف البسيط والتعديل الطفيف للوقائع، أو تنميق الحقائق، أو تناسي بعض التفاصيل المعينة التي لا تناسب موضوع وهدف القصة. في هذه الحالة سيكون تقريرك عبارة عن غش وخداع. وهذا ينطبق - بالقوة نفسها - على المصورين، وعلى "فبركة" الصور، حيث تعرض حدثا أو حالة تحاكي الواقع المزعوم.

وعرف أيضا عن بعض مصوري الأخبار في أوروبا الغربية أنهم يحملون في سياراتهم بعض "المؤثرات الدعائية" لإقحامها في الصور. وأشهرها حذاء طفل أو لعبة على شكل دب، فإذا ذهبوا لتغطية الكوارث، مثل اصطدام قطار أو تحطم طائرة، دسوا هذه "المؤثرات" بين الحطام لكي تبدو الصورة "مثيرة وشجية". أصبحت هذه الأساليب مبتذلة الآن، علاوة على أن هناك خطرا على الدوام يتمثل في أن قائمة المسافرين، حين تكشف في النهاية، لا تضم أي طفل! الأكاذيب المتعمدة التي تزيف الواقع، أو على الأقل تلك التي اكتشفت منها، أصبحت نادرة جدا. ولربما يكون أشهر مثال حديث على ذلك قصة جانيت كوك في صحيفة "واشنطن بوست" التي فازت بها بجائزة بوليتزر. القصة كانت بعنوان "عالم جيمي"، وتدور حول صبي في الثامنة مدمن على الهيروئين. لكن جيمي لم يكن له وجود، فالقصة ملفقة من البداية إلى النهاية. وحين افتضح زيفها، رأت "واشنطن بوست"، بحكمة متأخرة، أن هناك العديد

من الإشارات التحذيرية. فقد راودت الشكوك بالقصة بعض العاملين في الصحيفة مثلا، لكنهم إما فضلوا الصمت، أو اعتقدوا أن القصة "مثيرة إلى حد يوجب عدم التحقق من صحتها". هذا الموقف "المهلك" صحفيا تلقى التشجيع من تحذيرات كوك من أن حياتها (وحياة جيمي) ستتعرضان للخطر لو جرى التحقق من صدق القصة. ولم يفكر أحد بالتدقيق في أوراقها الثبوتية. فقد زعمت أنها خريجة "فاسر"، وتحمل شهادة الماجستير من "توليدو"، ودرست في "السوربون"، وكانت عازفة بيانو بارعة وتتحدث أربع لغات. ولم يشتبه المحررون بأن شابة في الخامسة والعشرين لا يمكن أن تتمتع بكل هذه الخبرات والمؤهلات. ومن المفارقة أن من بين هؤلاء المدراء، بوب ودوارد بطل "ووترغيت".

ينبغي أن لا تحقق مكسبا شخصيا من المعلومات التي حصلت عليها

يعتبر استخدام المعلومات لتحقيق مكسب تجاري قبل نشر القصة إغراء يواجهه على الأرجح المراسلون المتخصصون في التجارة والأعمال. قبل بضع سنين، شارك مراسل لصحيفة "وول ستريت جورنال"، يدعى فوستر وينانز، في كتابة عمود اعتمادا على معلومات مستقاة من مصادر تتاجر بالأسهم. وقرر بيع المعلومات إلى أحد السماسرة من أصدقائه.

تلقى مبلغ 31000 دولار لتسريب مضمون العمود لعدد من السماسرة، الأمر الذي مكنهم من شراء وبيع أسهم في بعض الشركات قبل أن تذاع هذه المعلومات، وتؤثر بالتالي على سعرها. وكسب الوسطاء حوالي 690 ألف دولار من المعلومات المتسربة. في نهاية الأمر، ألقي القبض على وينانز والسماسرة وأدينوا في المحكمة بانتهاك قانون تبادل الأسهم والسندات من خلال استغلال المعلومات السرية لمصلحتهم الخاصة. حكم على وينانز بالسجن ثمانية عشر شهرا، ووضعه تحت المراقبة مدة خمس سنوات، وبالعمل في الخدمة الاجتماعية 400 ساعة، وبغرامة مالية قدرهما 500 دولار، ولذلك فإن العديد

من الصحف الغربية تفرض الآن على الصحفيين والمراسلين العاملين في الشؤون المالية إعلان استثماراتهم وتعاملاتهم المالية.

المناطق الرمادية

القضايا الآنفة واضحة المعالم لا لبس فيها. لكن العديد من المسائل الأخرى في كتابة التقارير الصحفية تعتبر أكثر تعقيدا. ومن الصعب صياغة وتطبيق قواعد وأنظمة عاجلة وصارمة في هذا المجال. لنأخذ على سبيل المثال الأسماء المزيفة لكتاب المقالات. هنا، يصبح الخطأ صريحا إذا استخدم بشكل روتيني لإعطاء الانطباع بأن عدد المحررين يتجاوز الحقيقة بأضعاف مضاعفة، لكن الممارسة تصبح أقل ضررا بكثير حين يستخدمها المحررون الرياضيون مثلا لإخفاء هوية مراسلين يعملون في صحيفتين (صباحية ومسائية) لتغطية الأحداث لأخرى تصدر يوم الأحد. ونظرا للزعم بأن القصة كتبت من قبل صحفي لا وجود له، اعتبر أسماء الكتاب المزيفة خداعا وغشا. والممارسة غير آمنة على وجه الخصوص حين يتحدى أحدهم صدق القصة، أو تصل إلى المحاكم. فمن يتقدم للدفاع عنها في المحكمة؟ ممثل ينتحل اسم المراسل الوهمي؟!!

الخصوصية

جرت محاولات عديدة للتشبث الصارم والمتزمت بالخصوصية، لكن لا يمكن لأي منها تجاوز أكثر الأمثلة والنماذج بساطة. فنحن نتفق جميعا على أنه إذا تصرف رئيس الدولة بطيش وعبث و"غازل" موظفة شابة في مكتبه، فإن كتابة قصة حول ذلك سيكون أمرا مشروعا. وحين يطلب منا شخص التصويت له في الانتخابات (ويطالب بضرائبنا لدفع راتبه)، فإن من حقنا أن نعرف شيئا عنه، عن حياته وكيف تؤثر في أدائه لواجباته. من ناحية أخرى، لن تقبل سوى قلة قليلة من الناس كتابة قصة عن موظف وموظفة تجمعهما علاقة عاطفية. فالحياة "الجنسية" للمواطنين العاديين، مهما كانت مثيرة ومغرية، لا تعتبر

هدفا مشروعا للقصص والتحقيقات الصحفية، إلا في حالة مخالفة القانون. لكن يكمن بين هذين الحدين المتطرفين، بكل ما يفصلهما من حالات أقل وضوحا وتحديدا، مسافة واسعة نجادل فيها حول الخصوصية.

الدليل التقليدي والمنطقي، هو أن يكون المستهدف شخصية عامة شهيرة، وانتهاك خصوصيته مبررا قانونيا على أساس المصلحة العامة، لا مجرد دغدغة فضول الجمهور. فإذا بالغ مرشح لشغل منصب عام في الحديث العلني عن الأخلاق وفضائل الحياة الأسرية، وكان بمقدورك إثبات حقيقة أن له العديد من العشيقات، فإن من الصواب نشر القصة. ازدواجية معاييره هنا تتصل اتصالا بينا بالحياة العامة.

هنالك مشكلتان اثنتان في هذا المبدأ التقليدي. أولا، إذا اعتقدت الصحيفة أن القصة ممتعة ومسلية، أو ماجنة وداعرة بما يكفي، فإن من الممكن تسويغ أي ذريعة بحجة "المصلحة العامة". ثانيا، تنزع التبريرات لأن تطبق بطريقة الموالاة والتحزب: حيث تدافع الصحف عن خصوصية الذين تؤيدهم وتنتهك خصوصية من تسعى لتدميرهم.

يكمن جزء من الجواب في أكثر الصفات والسمات بعدا عن الصحافة تقليديا: الحساسية. إذ ينبغي أن يكون لدى الصحفيين أسباب وجيهة لانتهاك خصوصية شخص معين، وأن يدركوا عواقب وتبعات الكتابة حول حياته الخاصة. قبل بضع سنين، أقام شرطي بريطاني علاقة غرامية غير مشروعة. علمت زوجته بالأمر واستحثته على قطع العلاقة مع عشيقته. لكن العاشقة الغيورة أبلغت الأمر إلى إحدى الصحف، فنشرت روايتها تحت عنوان عريض: "الحياة الغرامية لمحقق". ونتيجة لذلك، تعرض طفل الزوجين إلى مضايقات في مدرسته، واستقال الزوج من عمله، واضطرت العائلة للرحيل. لربما يعتقد بعض الناس أن المحقق نال العقوبة العادلة على ذنبه. لكنني لا أرى ذلك، ولا أحب تبرير نشر ذلك التقرير.

مخالفة القانون

ثمة حالة أقل شيوعا تظهر حين يتورط الصحفي في تصرفات مسيئة في سبيل التحقيق في قضية ما. في الحقيقة، ينبغي عليه تجنب ذلك، فمخالفة القانون عند السعي وراء قصة خطأ وخطر في آن معا. وهي تجرد التقرير أو التحقيق من أي مشروعية أخلاقية كان سيتمتع بها لولاها.

في بعض الأحيان، يتوصل المراسلون الذين يحققون في قضايا تتعلق بتجارة المخدرات، أو الجريمة، أو الدعارة، إلى معلومات يجب إبلاغها إلى الشرطة مباشرة. أعتقد أن عليك أن تفعل ذلك. وإلا فأنت تضعف مشروعية مهمتك، ولربما تعرض حياة مواطنين أبرياء للخطر. الشرطة وحدها - وليس أنت - هي المخولة للحكم في هذا الأمر (تنطبق هذه الحالة المتعلقة بسلامة المواطنين على الأوضاع التي يتهم فيها الصحفيون بالوقوف موقف المتفرج في الكوارث أو الحروب دون أن يفعلوا شيئا لمساعدة أولئك المعرضين للخطر. القاعدة التي اتبعها هي: إذا استطعت ممارسة أي تأثير في نتيجة الوضع، عليك اتباع دوافعك الغريزية ومد يد العون للآخرين).

"لا تقبل تذكرة مجانية من مدير مسرح، ولا هدية مجانية من غرفة التجارة، ولا معروفا من سياسي".

هـ. ال. مينكين

obeikandl.com

الكتابة للصحف

"أهم موهبة بالنسبة للكاتب امتلاكه كاشف ضمني للهراء مقاوم للصدمات".

ارنست هيمنغواي

الكتابة الصحفية ليست أدبا، فهي تختلف عن كتابة رواية أو قصة قصيرة. ومع ذلك، لا تصل إلى درجة الاختلاف التي قد يظنها بعضهم أو يرغبها. إذ تجمع كل أنواع الكتابة الجيدة بعض العوامل المشتركة: الوضوح، سهولة القراءة، استخدام اللغة الحية "الطازجة"، الحث والتحفيز والإمتاع. هذه العوامل تنطبق على القصة الصحفية الجيدة مثلما تنطبق على الرواية الأدبية الجيدة. وذلك بغض النظر عن اللغة المستخدمة.

والآن إلى الخبر السيئ. تعلم الكتابة عمل صعب وموحش. كلنا نعرف أشخاصا يقولون إنهم يريدون الكتابة. لكن ما يريدونه غالبا هو التباهي بأنهم كتاب. أما ما يرغبون عنه فهو الجلوس على كراسيهم إلى أن يملؤوا صفحة ورق أو شاشة كمبيوتر. هذا ما ينبغي عليك فعله، مرات عديدة. والطريقة التي تحسن وتطور بها ما تملكه من موهبة هي أن تكتب مئات ومئات من القصص والمقالات وترتكب أخطاء. تترك الأمور المهمة لتضيف تلك التي لا تتصل بموضوعك، تكتب نصف مقالة، ثم تدرك أنك أخطأت وعليك أن تبدأ مجددا،

obeikandl.com

تجد الأسلوب سمجا، أو مغاليا في التفاخر والتنميق، أو جامدا وعسيرا، وتكتشف أن عملك مشوش ومربك أو مبتذل ومكرر، فتقرأ فقرات كاملة على قدر من السخف بحيث تشعر بالإحراج.

الآن، الخبر السار. بعد مدة، ونتيجة متابعة الصحف الجيدة، والاستماع، والقراءة، ودراسة المقالات والتحقيقات الجيدة والسيئة، تصبح ناقدا صارما لذاتك، وتبدأ برؤية السبيل. ما زالت هناك فترات تتطلب فيها وقتا طويلا لكتابة موضوع. لكن على وجه العموم، كلما زاد حجم ما تكتبه، زاد أسلوبك سلاسة ورشاقة. الكتابة مثل العضلة، تقوى بتمرينها وتدريبها كل يوم؛ لسوف يتقلص الوقت الذي تهدره في البدايات الفاشلة أو الخاطئة، وفي طرق السبل المسدودة، وكتابة قصص بإيقاع لا يناسب الحجم الذي يجب أن تأخذه، وستقتصد في الطاقة التي تصرفها على محاولة التفكير بعبارة منمقة معقدة في موضع من الأفضل أن تستعمل فيه جملة بسيطة.

وتجد ذلك الشيء المهم الذي لا يمكن بدونه أن تدعو نفسك كاتبا - صوتك. لسوف تتوقف عن تجريب أسلوب المبالغة والإطناب والإسهاب، المغالي في الفصحى أو العامية. وبدلا من ذلك ستتبنى أسلوبا طبيعيا معتدلا يناسبك، أسلوبا متسقا له إيقاع منتظم يميزك وتعابير عليها بصمتك، وإذا ما تلي جهارا - وهذا اختبار حاسم الأهمية - سيبدو نسخة (مرتبة قليلا) من كلامك. سوف يكون أسلوبك الخاص المميز. ليس متكلفا، ولا متصنعا، ولا مستعارا. بالطبع سوف يدين بشيء ما للكتاب الذين تعجب بهم، ولخلفيتك وتاريخك، وتعليمك، وقراءاتك ومطالعاتك.. الخ. لكنه سيكون أسلوبك أنت - كلماتك ومصطلحاتك، أنماطك لطول الجملة وإيقاعك داخلها. سيكون مثل توقيعك، لكنه مقروء بوضوح أكبر.

التخطيط

أهم مراحل الكتابة تلك التي تحدث داخل رأسك، أي تلك الممتدة بين اكتمال بحث ودراسة الموضوع وكتابة أول كلمة على الورق. عليك أن تفكر

بمادتك وتقرر ماهيتها وما الذي تريد أن تفعله بها. الإنشاء لا ينحصر فقط في ترتيب الكلمات، بل يمتد ليشمل ترتيب وتنظيم الأفكار. وليس من المهم مدى براعتك في استحضار العبارات الساحرة أو الجمل الملونة أو الملاحظات الذكية؛ فإن لم تتشكل لديك فكرة واضحة عما تريد قوله فسيظهر ذلك ولن يخفى على أحد.

يسهل تطبيق كل ما ذكرنا على بعض الأحداث الكارثية، أو القصص الإخبارية القصيرة والمباشرة، لكن الصحافة ليست كلها كذلك. إذ يمكن للقصص الإخبارية أن تكون معقدة، وتفتقد القوة التي ترغبها، أو طويلة تغطي العديد من الجوانب والملامح المختلفة، أو تكلف بكتابتها دون أن تتأكد من قدرة موضوعها على إثارة اهتمام القارئ. عندها، عليك أن تفكر بعمق بموضوع القصة، الذي لا يتضح بشكل فوري في بعض الأحيان. فمقالة حول رجل يجمع/ ويحتفظ (في شقته السكنية مثلا) بنوع غريب من الضفادع تعتبر موضوعا سطحيا من وجهة نظر علم البرمائيات، ولن تثير اهتمام معظم الناس بصورة آلية. لكنها تظل قصة تتناول الغرابة والشذوذ وكيف تستحوذ هواية على حياة بعض الناس (وبيوتهم). وهذا موضوع أشد إثارة من الضفادع.

الأمر الآخر الذي يجب عليك استنباطه وتفصيله هو معالجة القصة. هل تمثل خبرا يتناول موضوعا جديا أو حدثا رسميا؟ أم موضوعا خفيفا، يثير اهتمامات الناس غير الجدية؟ هل يجب رواية فصولها حسب الترتيب الزمني أم من خلال تغطية كل جانب على حده؟ جميع هذه الطرق المختلفة للتعامل مع القصة الإخبارية (وهناك المزيد منها) تؤثر في البناء والتركيب، في الإطار الرئيس الذي يجب أن تعرفه قبل أن تبدأ. في حالة القصص الإخبارية الخفيفة والبسيطة، يمكنك - ذهنيا - أن تخطط بسرعة لما تريد قوله والنظام الذي ستسير عليه. لكن مع المقالات الأكثر طولا وتعقيدا أنت بحاجة إلى خطة مكتوبة. لا تتردد أبدا في رسم خطة على الورق. فهذا ليس علامة على جهالة

غرير مبتدئ، بل دليلا على مسعى للكتابة بشكل صحيح. ولا ينبغي أن تكون مبالغة في التفاصيل - مجرد الدعامات الأساسية للقصة المنظمة، مع بعض الملاحظات حول طريقة وصلها معا.

سوف نفرد للبناء والتركيب فصلا كاملا (16)، وكذلك للمقدمة (15)، الفقرة الأولى البالغة الأهمية. والفصلان سيناقشان كيفية الاستحواذ على انتباه القارئ على الفور والاحتفاظ به طيلة المقال أو التقرير أو القصة - وهما (الاستحواذ والاحتفاظ) من المقومات الجوهرية للكتابة الجيدة. وهنالك، برأيي، ستة أخرى: الوضوح، اللغة الحية (الطازجة)، الأمانة، الدقة، المواءمة، الفعالية - وهي مواضيع هذا الفصل.

الوضوح

ينبغي أن تكون كل قصة واضحة في فكرتها، وتنظيمها، ولغتها. فإن افتقدت هذه السمات فهي بحاجة لإعادة تفكير أو إعادة كتابة. لست أنا فقط من يقول ذلك، الروائي الفرنسي ستاندال كتب ذات مرة: "أرى قاعدة واحدة وحسب: أن تكون واضحا. فإن لم أكن واضحا فإن عالمي بأكمله سوف يتصدع وينهار". أما الكاتب البريطاني هـ. جي. ويلز فقد عبر عن الأمر بطريقة أقل درامية: "أكتب بأسلوب مباشر، تماما كما أمشي، لأنه أقصر الطرق للوصول إلى الهدف". ولا ينطبق هذا على مجال أكثر من الكتابة في الصحف. إذ يقرؤها الناس غالبا في أماكن صاخبة تشتت الذهن، وفي ظروف تجعل وقتهم ضيقا وتضطرهم للحصول على الأخبار بأسهل الطرق، وإن كانت أدنى مستوى. هنالك نقاط محددة ينبغي التنبه لها.

وضح أفكارك حتى قبل أن تكتب كلمة واحدة

من أجل تفسير أمر للآخرين يجب أن تفهمه تماما أولا. وإلى أن تبلغ هذه المرحلة لا تكتب شيئا. والنصيحة المفيدة لمن يجد الفكرة مشوشة في ذهنه أن يبلغها لزميل أو صديق. ومن المرجح أن ينطق جوهر القصة (ونمط ترتيبها الأصيل) عفويا وبشكل لاإرادي.

احرص على ضم كل مرحلة في السرد، وكل حادث في سلسلة الأحداث، وكل خطوة من خطوات الحجة

إن القفز من النقطة (آ) إلى النقطة (ج) يترك القارئ لكي يستنبط وحده أن ب تقع بينهما. وهذا أمر مقلق ومربك وأحيانا مضلل، خصوصا في الحالات التي تكون فيها (ب) في غير محلها. لا تترك فجوات في التسلسل المنطقي. فلربما تفهم أنساق تفكيرك، لكن القارئ لن يعرفها حتى تشرحها له.

لا تفترض أن القارئ يملك معرفة خاصة أو مسبقة

حين تقضي وقتا طويلا في التنقيب في مجال متخصص أو تقني، يسهل عليك تناسي حقيقة أن معلومات القارئ لا تزيد عن معلوماتك قبل أن تبدأ بحثك. لا تنس تلك الحقيقة. وبالنسبة للقصص التي تنشر على أيام عديدة، أو أسابيع أو شهور، لا تفترض أن القراء يمتلكون ذاكرة فوتوغرافية حول ما حدث من قبل، أو أنهم كتبوا ملاحظات وافية عندما قرؤوا الحلقات السابقة. من المؤكد أنهم لم يدونوا شيئا. تبنى عوضا عن ذلك الافتراض القائل إن القراء سيحتاجون إلى من يعيد تذكيرهم ويوجز لهم، إلا إذا أصبحت المعلومات جزءا من المعرفة العامة.

اشرح كل العبارات الاصطلاحية

القاعدة المعيارية هنا هي تجنب استعمال كل العبارات الاصطلاحية، علمية كانت أو تقنية أو بيروقراطية أو غيرها. وأعتقد أن هذه القاعدة خاطئة. فبعض العبارات الاصطلاحية قد تكون مفيدة. حيث تدخل القارئ إلى عالم كان مغلقا دونه، ويضيف إلى معارفه اللغة التي يستخدمها الاختصاصيون، ولا سيما في مجال مصطلحات البيروقراطيين، ويظهر الجمل والعبارات السخيفة (غالبا) التي يلفقها المسؤولون، ويكشف بالتالي ذهنيتهم. لهذه الأسباب كلها، ومن أجل محبي التورية، لا ينبغي حظر اللغة الاصطلاحية. لكن ما يجب إدانته هو الفشل في تفسير مداليل العبارات الاصطلاحية باللغة العادية اليومية.

هذا لا يعني المبالغة في استخدام اللغة الاصطلاحية، حتى بعد شرحها وتفسيرها. ويمكن للصحفيين، لا سيما المراسلين المتخصصين، الانزلاق بسهولة إلى اللغة الاصطلاحية لأنهم يرغبون باستعراض معارفهم والظهور بمظهر الخبراء المطلعين من أهل المهنة. على أية حال، استخدمها في حفلة إن اعتقدت أنها ستؤثر في الحاضرين، لكن ليس في صحيفتك بالتأكيد. إن محاولة الظهور بمظهر المطلع الخبير، أو الكتابة لأهل مهنة معينة أو مجال محدد هي ممارسة نخبوية أو تجهيلية، وكلتاهما من السمات غير المرغوبة في الصحف.

ثم هنالك المصطلحات التجارية والسياسية، التي تعتبر هذه الأيام أشدها ضررا على الإطلاق. فهي واسعة الانتشار، ويصعب أحيانا اكتشافها، والصحفيون عرضة على وجه خاص لتكرارها وترديدها بطريقة ببغائية. فالمتحدثون بب الشركات الكبرى يقولون إن "عملياتهم" (الشركة) تعاني "من صعوبات مؤقتة في التدفق النقدي" (نفاد المال) بسبب "مشكلات تتعلق بوضع السوق" (امتناع الناس عن شراء منتجاتها)، ولذلك سوف تلجأ إلى "ترشيد قوتها العاملة" (طرد العمال). المسؤولون الحكوميون يتحدثون عن "مرافق إصلاحية"، حين يريدون الإشارة إلى السجون، وعن "عدم التوازن بين العرض والطلب فيما يتعلق بالوحدات العائلية" وهم يعنون أن هناك أزمة سكن.

العبارات الملطفة شكل من الغش اللغوي شائع على وجه الخصوص في الأماكن التي ينتشر فيها المسؤولون عن العلاقات العامة. فهم يستغلون النزعة الطبيعية لدى السياسيين ورجال الأعمال نحو محاولة إخفاء الحقيقة (إن لم نقل الكذب) عند التعرض للضغوط.

تأكد من جميع الجمل التي تستخدمها واضحة تماما

لا تكتب جملا مربكة ومشوشة تجبر القارئ على العودة إلى البداية لقراءة مقالتك مرة أخرى. بدلا من ذلك، أعد أنت كتابتها. هذا يختلف، بالطبع، عن الأسلوب المتعمد في كتابة الجمل التي تقود القارئ إلى توقع شيء ليجد شيئا آخر. فالمفاجأة مهمة لإبقاء الكتابة نابضة بالحياة.

تجنب الكتابة المخادعة واللغة المخادعة

كل كتابة ذكية تبعا لمعيار كاتبها الذاتي تعتبر سيئة بالتأكيد، دونما حاجة إلى برهان تقريبا. فالهدف من الكتابة نقل المعنى الذي تريده إلى الآخرين، لا الاحتفاظ به لنفسك. ولذلك، إن وجدت نفسك تكتب جملة استعراضية تفخر بها على وجه الخصوص، فقم بشطبها؛ وإن اضطرت أن تشرح - شفاهة - فقرة لأحدهم، قم بتغييرها؛ وإن شعرت بإغراء استخدام كلمات وألفاظ تظهر تبحرك في العلم وسعة اطلاعك، قاومها.

كلمة أخيرة حول الوضوح - البساطة

يطالب الصحفيون عادة بالتمسك بهذه الفضيلة حين يكتبون للصحف الجماهيرية على وجه الخصوص. وتلك نصيحة جيدة، لكن إلى حد معين؛ وهذا الحد هو الفاصل بين البساطة والسذاجة. بعض الصحف، لا سيما في بريطانيا واستراليا، تقلل من مستوى معارف ومعلومات قرائها، مما يؤدي إلى استخدامها مفردات مقيدة ولغة مدبجة.

الدفاع الذي تستخدمه عن هذا الأسلوب يعتمد على التوكيد بأنها تعرف قراءها - وهو توكيد مشكوك فيه. فلو كانت تعرف قراءها فعلا لأدركت أن مستوى زبائنها في الكلام والتفكير يتجاوز مستواها بعدة مرات. فإن شكك أحد بهذه الحقيقة، عليه أن يعقد مقارنة مع اللغة والمفردات الأكثر تعقيدا والمستخدمة في التلفزيون حيث تمكن القراء من التكيف والتعامل معها بنجاح كل يوم. حين تعني البساطة الاستيلاد اللغوي ضمن إطار محصور ومقيد، فقد آن الأوان للسماح بقليل من الدماء الجديدة.

اللغة الحية (الطازجة)

الهدف الكلي للمقالات في الصحف هو تقديم شيء للقراء لم يكن لديهم قبلا - معلومات، رؤى، مشاهدات، أفكار. ولذلك فإن من الخسارة الفادحة أن

ننقل هذه الجدة والطرافة بلغة مستهلكة ومبتذلة بليت من كثرة الاستعمال. وحتى حين تعبر عن أحدث الأفكار والموضوعات سيشعر القراء أنها مألوفة وعتيقة. النقاط التي يجب الانتباه لها هي:

اعتبر كل قصة إخبارية شيئا جديدا ومتفردا

لا تسقط في شرك الكتابة المعيارية الخاضعة للصيغة السائدة، حيث تقول لنفسك: "ها هي قصة حوارية"، ثم تكرر النمط المعياري المبتذل. بالطبع، لابد من وجود حد لأنواع القصص المتوفرة، لكن ذلك لا يعني أن تجعل كل القصص التي تحمل شبها بالأخرى تخضع لصيغة جاهزة. البروفسور جون كاري، يكتب في مقدمته لـ"كتاب فيبر المرجعي حول الريبورتاج": "التراكم الهائل للغة المعيارية وخطوط القصة المبتذلة، يكمن في الانتظار والاستعداد للقفز من الأصابع إلى الصفحة المطبوعة". ويؤكد إن على المراسلين رؤية قصتهم وروايتها كأنما يفعلون ذلك للمرة الأولى. وبهذا المعنى، حاذر على وجه الخصوص من القصة التي تبدو وكأنها كتبت آليا. فإن شعرت بهذا الخطر، توقف، وفكر، واكتبها بنفسك.

تجنب كل "الكليشيهات" المبتذلة

هنا، وكاستثناء، يستوي القول والفعل في السهولة. "الكليشيهات" عبارة عن كلمات وجمل مألوفة، بل مبتذلة، ولذلك فإن تمييزها لا يمثل أي مشكلة. والقاعدة المفيدة تشير إلى أن كل ما تشتبه به باعتباره "كليشيه" يكون كذلك دون ريب ولابد من حذفه. بعضها يستعمل في جميع المجالات عموما، بعضها الآخر يبدو وكأنه مقتصر حصرا على الصحف (سوف نتطرق إلى هذه النقطة في موضع لاحق من هذا الفصل). لكنها مهما كانت، فهي تعابير عتيقة وبالية إلى حد أنها لم تعد تحدث أي تأثير.

"كليشيهات" التشبيهات البيانية تمثل خطرا خاصا لأن استخدامها الآلي يعني أنها غالبا ما تقحم في المكان الخطأ. على سبيل المثال، يعتبر وصف

موقع الاصطدام بأنه "يشبه ساحة المعركة" خاطئ وغير أصيل في آن معا، كما يعرف من شهد المكانين تماما. لكن بغض النظر عن كون "الكليشيه" (التي تخرج من ذهنك وتدخل القصة دون أن تدرك) تشبيها بيانيا، أو استعارة مجازية، أو عبارة شائعة، أو كلمة مفردة، فإن من المتوجب حذفها واستبدالها بتعبير "طازج" ينبض بالحياة.

تجنب الكلمات الآلية كلها

وهذه في العادة صفات يربطها بعض المراسلين بصورة غريزية مع بعض الأسماء. فكل الصفقات يجب أن تكون "ضخمة" وكل الجرائم "وحشية"، والمخاوف "منتشرة"، والمعارك "محتدمة".. لقد غدت الصفات مثل الطفيليات التي تعتاش على مضيفيها، لتمتص منذ أمد بعيد أي تأثير كانت تتركه. هنالك أيضا العبارات التي يبدو أنها تستعمل آليا في ظروف معينة (من قبل الصحف المحلية على وجه الخصوص). في الجرائد الإنكليزية مثلا، يقوم المحققون في الكوارث دوما "بالتنقيب وسط الحطام ووجوههم عابسة" (كأنما المفروض أن يعلوها الابتسام)، وأعمال الشغب في الدول الأخرى واجهها "رجال الشرطة المسلحون بالهراوات"، في حين انطلقت "مظاهرة قذف المشاركون فيها [الشرطة] بالحجارة". ليست هذه مجرد تعابير آلية، بل "كليشيهات" تستخدم مرارا وتكرارا بحيث لا يمكن أن تكون دقيقة في جميع الحالات.

انتبه للتورية والجناس

الحظر الشامل والصريح على استخدامهما لن يكون مبالغا في القسوة والتزمت - فلن تجد إلا مرة واحدة كل بضع سنين (ثلاث سنوات مثلا) صحفيا في مكان ما من العالم يبتكر شيئا جديدا في هذا السياق. بينما تستخدم ملايين العبارات الشائعة والمبتذلة. التورية في العادة تأخذ شكلين اثنين: الأول حين يفكر الكاتب بكل كلمة يحتمل ارتباطها بموضوعه ولا يفوت فرصة لملء قصته بها؛ والثاني حين تبدو القصة، وتكون عادة قصة خفيفة في صحيفة

شعبية، وكأنها مجرد تلاعب بالألفاظ. بالنسبة للعارفين، تمثل هذه التوريات كشفا مجانيا لا يخطئ عن حقيقة أن الكاتب يفتقد الخيال المبدع وأن القصة لا تستحق المساحة التي أفردت لها.

لا توجد قواعد صارمة ومطلقة في الكتابة، باستثناء واحدة: لا تكتب عن الواضح المعروف. فإذا ذهبت إلى لاس فيغاس لا تكتب عن آلات القمار؛ وإن كنت في لندن، حاول ألا تنهي المقالة بالإشارة إلى ساعة بيغ بن أو الضباب والمطر: وإن كنت تكتب من باريس دع المشاهدات والحديث عن الأزياء إلى شخص غيرك. كل ذلك ينطبق على التورية، فلن تودع السجن إذا كتبت تحقيقا خفيفا عن القطط مثلا، يتجنب اللعب على ألفاظ مثل المخالب، أو السبع أرواح..

وعلى العكس من الخرافة التي يروجها الصحفيون الذين تمثل التوريات أسهمهم الوحيدة في التجارة، فهي ليست صعبة أو عسيرة. فلو كانت كذلك لا نخفض عددها في الصحف. أما القاعدة العامة المفيدة في هذا المجال فهي السماح لغيرك بالحصول على مجد ابتكار تورية (كل ثلاث سنين) تستحق أن يكررها الآخرون، والخروج من المنافسة بعدم استخدامها.

ابذل جهدك لابتكار تشبيهات، وابتكارات، وعبارات جديدة

كلما وجدت نفسك تكتب بطريقة شبه آلية عبارة، أو تشبيها، أو استعارة، توقف وفكر. فكر بشكل متعمق بالطبيعة الحقيقية لما تحاول نقله وابحث عن عبارة تناسبه تماما، لا مجرد أقرب خيار له (دون تعديل). الكتاب المتمرسون يملكون جميع أنواع الوسائل التي تمكنهم من قلب العبارات المألوفة أو تعديلها لإعطائها حياة جديدة بطريقة متروية وذكية. لكنهم يبذلون طاقة ذهنية كبيرة أيضا في محاولة وصف شيء أو نقل طبيعته بدقة، وهذا يعني الجهد الدؤوب لابتكار عبارة جديدة مخصصة له.

كما يكافحون ويجادلون المحررين دفاعا عن الحق باستخدام لغة نابضة بالحياة. في بعض الأحيان يكون ذلك ضروريا حين تعمل في صحيفة تسعى

لتقييد كتابها بالأصفاد الأدبية. هيئة التحرير في "نيويورك تايمز" مثلا اشتهرت باللغة الميتة التي تفرضها على نثر كتابها. فكرٌ مثلا بتجارب مولي ايفنز في أواخر السبعينات. فقد كتبت ذات مرة عن رجل إنه "بَطِن كأحد مباني المعهد السيمثسوني"(*)، لكن المحرر غير العبارة إلى "رجل منتفخ البطن" - وهي صحيحة لكن تفتقد الحياة. وفي مناسبة أخرى كتبت عن شخص "يزعق ككمان بدولارين"، ظهرت في الصحيفة "..كآلة موسيقية رخيصة". المحررون الذين يفعلون هذه الأشياء باللغة الزاهية النابضة بالحياة ينبغي أن يتحولوا للعمل في المتاحف.

حاذر من الكلمات أو العبارات الدارجة

للغة طرازها الدارج ("موضة")، مثل الثياب وتسريحة الشعر. لكن الكلمات أو العبارات الجديدة الدارجة تصبح بسرعة مزعجة عند قراءتها. لذل، أسدِ لكتاباتك معروفا: كن مبتكرا رائدا لا مقلدا تابعا. استخدم كلماتك وعباراتك وصوتك أنت، ودع الآخرين يحاكون ويقلدون وينسخون "الموضة" العابرة. ومثلما يقول كتاب قواعد استخدام اللغة وعلامات الترقيم.. الذي تصدره صحيفة "ديلي تلغراف" اللندنية: "إن أغراك استعمال كلمة لأن جميع الكتاب الذائعين يستعملونها، عليك أن تغير الكلمة، أو مادة قراءاتك، أو مهنتك". أو كما هدد برنارد كيلغور ذات مرة موظفيه بأنه سيطرد كل من يستخدم كلمات "على الموضة" على صفحات "فايننشال تايمز".

الأمانة

هنالك جوانب من العمل الصحفي تضعف غالبا طلب الحقيقة. الافتقار إلى الوقت الكافي لجمع وترتيب تقرير شامل وكامل عن الحدث، وعدم القدرة

(*) مجموعة من المباني تضم أكثر من عشرة متاحف ومراكز بحوث ومرافق نشر في واشنطن (نسبة للبريطاني جيمس سميثسون [1829 -1765] الذي تبرع لتمويل تأسيسها في القرن التاسع عشر). (م)

على الوصول إلى المصادر والمعلومات كلها، والحاجة إلى كتابة قصة خلال مدة قصيرة - كل هذه العوامل يمكن أن تمنعنا من تقديم رواية على القدر الذي نرغبه من الاكتمال (أو الدقة). ولا بأس في ذلك طالما أدركنا هذه الحدود المقيدة ورفضنا الزعم بأننا نقدم الرواية النهائية لما حدث في كل قصة نكتبها. لكن من الأفضل أن نبذل أقصى جهد ممكن لمغالبة هذه الحدود والمعوقات والصعوبات.

إلا أن الصحفيين، عندما يكتبون ويحررون القصص الإخبارية غالبا، يزيدون الهوة الفاصلة بين القصة والحقيقة. فالكتاب يعرفون ما يفضله المحررون ويعتبرونه قصة إخبارية قوية ومثيرة، وعند كتابة مثل هذه القصص يهملون بعض التفاصيل ويستخدمون غالبا لغة تبالغ/ أو "تضيف إثارة" إلى القصة لتتجاوز قيمتها الحقيقية. فإن لم يفعلوا ذلك، لا سيما في الصحف الشعبية، سيتولى المهمة المحررون. ليس من السهل تجنب هذه العملية، غير المقصودة أحيانا، والمتعمدة في أحيان أخرى، وسنعرض فيما يلي بعض النقاط المهمة:

لا تكتب سوى ما تعلم أنه صحيح

قد يبدو ذلك واضحا ولا يحتاج إلى تذكير، لكن ليس كذلك. فكثير من المراسلين يقولون عندما يواجهون من يتحدى صدق جزء من القصة: "لابد أن يكون صحيحا". إن افتراضات ظنية كهذه قد تصلح لحديث عابر مع زميل في مقهى، لكن ليس للصحف.

يجب أن تكون جميع القصص الإخبارية جهدا واعيا متوازنا وأمينا للتفاصيل وروح الموضوع

المسألة الأساسية في هذا النسق المطول لا تتعلق فقط بالتأكد من أنك أضفت وجهتي النظر (في العادة هناك أكثر من اثنتين) إلى القصة ونقلت الشواهد والاقتباسات بشكل دقيق، بل تتصل أيضا بالتأكد من أن ما أضفته يعكس بدقة الصورة الكاملة كما تعرفها. يمكنك مثلا قضاء وقت طويل في

مقابلة شخص مسالم هادئ الطبع، إلا عند الإجابة عن أحد الأسئلة. عليك بالطبع أن تذكر سرعة الغضب هذه، لكن حتى لو نقلتها لقرائك بدقة كاملة، فإن القصة بكاملها لن تكون صادقة إلا إذا أشرت إلى أن مزاجه العام هادئ ومسالم. وأي شيء آخر سيكون بمثابة انتقائية متحيزة بغرض غير شريف.

لا تبالغ بغرض الإثارة

هنا، يستخدم الصحفيون كلمات تنقل معنى أشد قوة وتأثيرا دون أن يحوي الموضوع أو المادة ما يبرر ذلك. معظم الكلمات تستخدم بشكل آلي لتناسب ما يظن الكاتب أنها تقاليد صحفية مطلوبة، وبالتالي فهي من "الكليشيهات" المبتذلة. لكن بغض النظر عن كون القصد واعيا ومتعمدا أم لا، فإن ذلك يؤدي إلى "احتراق الطبخة". فكلمات مثل "مثير" و"صادم"، و"دراماتيكي"، و"مقلق"، تستعمل لوصف أشياء تكون عادة على درجة أقل بكثير من "الإثارة" و"الصدم" و"الدرامية" و"الإزعاج". ومثلما أشار أحد المعلقين ذات مرة: "حين تسمع عن حدث يصفه صحفي بأنه مقلق، تعرف أنك لن تأخذ الأمر على محمل الجد".

هنالك جانبان آخران لهذه العادة السيئة. أولا، كل هذه الكلمات تتضمن حكم قيمة، لا محل له في القصة الإخبارية المباشرة والصادقة. والمبالغة بغرض الإثارة أسوأ أنواع التعليقات المقحمة - التي تتسلل تحت قناع الوصف الموضوعي المشروع، دون أن تعلن عن نفسها، بل تتستر بتطابق مزعوم. ثانيا، دع الحقائق تتحدث عن نفسها. فإن كانت القصة الإخبارية مثيرة أو صادمة أو مقلقة، أو غير ذلك، اشرح للقارئ عنها واترك له الحكم. فالصحافة الجيدة لا تشمل ثقة القارئ بالصحيفة فقط، بل ثقة الصحيفة بالقارئ أيضا.

المشكلة الأخيرة في هذا النوع من اللغة المبالغة التي تحبس الأنفاس هي انقطاع العلاقة باللغة التي يستعملها الإنسان العادي في الواقع المعاش. ففي كل البلدان تقريبا، ارتقت "لغة الجرائد" هذه، وتطورت بواسطة العديد من

الصحف. في بريطانيا مثلا، هنالك عالم يوصف فيه أي خلاف بين رجلين بأنه "مواجهة"، وحيث تطلق فيه تعابير مثل "في خضم مشاهد استثنائية" (لوصف كل ما هو غير عادي مألوف)، و"نجمة المسلسلات التلفزيونية" (على كل ممثلة أدت دورا هامشيا)، والطفل "المعجزة" (على كل من لا يولد تحت الظروف العادية الروتينية)، الذي "نقل على جناح السرعة" إلى المستشفى ليعالجه الأطباء "الأبطال". كتابة التقارير والقصص والتحقيقات بلغة الجرائد (بكل ما تتصف به من إثارة ومبالغة وابتذال) خداع وغش، أو على أقل تقدير تبعدها مسافة كبيرة عن الحقيقة الواقعية، ولأن لغتها بليت من كثرة الاستعمال، لن تحدث تأثيرا في القراء في نهاية المطاف. إنها لغة متحجرة كالمستحاثات، تستخدم ضمن مجموعة من الطقوس الشعائرية. شكل فقد الحياة. استبدلها بلغة طازجة، وصادقة، ونابضة بالحياة.

حاذر من استخدام لغة العناوين المبسطة التي لا تعرف سوى الحدود القصوى

هنالك فرق كبير بين الكتابة التي تعيد الحياة إلى قضية أو موضوع، وتلك التي تمنح المادة حياة مزيفة. المثال الصارخ على ذلك استخدام الكلمات التي لا تحتمل المعنى الرمادي: فإما أسود أو أبيض. أفضل توضيح لهذه الممارسة هو وصل جذورها بالصحف الأوروبية الشعبية. فخلال السنوات الخمسين الماضية تقريبا، أصبحت العناوين الرئيسة في مثل هذه الصحف أكبر حجما على نحو مطرد. أما النتيجة التي لا يمكن تجنبها فهي أن الكلمات المستخدمة فيها غدت أقصر. وظهرت مشكلة صعبة مع هذه الكلمات القصيرة: ففي كل حالة تقريبا عجزت عن نقل أطياف المعاني وتنوعها مقارنة بالكلمات الطويلة. فهي تميل إلى نقل الحدود المتطرفة للمعاني: الأسود والأبيض وليس ألوان الواقع الحقيقي المتدرجة بينهما.

لذلك فإن كانت آرائي وآراؤك مختلفة حول موضوع معين وناقشناه، يمكننا القول إننا "لم نتفق". وإذا كانت آراؤنا تحظى بما يكفي من الاهتمام والإثارة

بالنسبة لصحيفة شعبية بريطانية وأرادت أن تكتب عن نقاشنا، فكيف ستشير إلى الخبر في عنوانها الرئيسي؟ "لم يتفق الرجلان" عبارة طويلة لا تناسب المقام، وكذلك كلمة "مجادلة" (بسبب المساحة المخصصة للعنوان). وهكذا يتحول عدم اتفاقنا إلى "شجار" أو "نزاع"، وهما يختلفان اختلافا بينا عن "النقاش"(*). فضرورات الطباعة والتصميم حرفت ما دار في اللقاء بيني وبينك.

في العديد من الصحف البريطانية تحول "الاستياء" (annoyance) (أو عدم الارتياح) إلى غضب (fury) (خارج عن حدود السيطرة)، والترتيبات (arrangements) (اتفاق غير رسمي مثلا) إلى "صفقة" (deal) (اتفاق رسمي، مع تليمحات محددة، وربما متعددة المعاني، إلى الجانب المالي، أو حتى إلى التشكيك بالأمانة والنزاهة أو الاشتباه بمخالفة القانون)، والحظ السيئ (bad luck) إلى "لعنة" (curse)، وانتقد (to criticize) إلى "صفع" (to slam)، وعدم الحضور (failure to attend) إلى "جفاء" (snub)، والنزاع المحلي/الداخلي(internal dispute) إلى "حرب أهلية" (civil war) ..الخ. هذه الأمثلة كلها (وهناك العديد غيرها يمكن الاختيار منها) تظل أقصر، وأكثر تطرفا، وأشد قسوة من الواقع الذي تصفه. وكأنما القصة الإخبارية التي تكتب بواسطتها تترجم إلى لغة أخرى لشخص يجتاحه غضب عارم لكن يعاني من ذخيرة محدودة من المفردات.

لربما انحصرت هذه المفردات غير الدقيقة في العناوين لولا أمر واحد: لغة عنوان القصة الإخبارية اليوم هي لغة نصها غدا. إذ يسيطر على ثقافة الصحف المحررون ورؤساؤهم من خلال لغة العناوين التي يوافقون عليها. يقرأ المراسلون الكلمات المستخدمة في العناوين التي توضع لقصصهم الإخبارية فيتبنونها لأنهم يرغبون بأن يعتبروا متناغمين مع ثقافة الصحيفة (ومحرريهم)، أو كتابا "لامعين متميزين بأسلوبهم النابض بالحياة". ويرى مراسلو صحف

(*) لفظة "debate" بالإنكليزية (مناظرة/نقاش/سجال) تضم عددا أكبر من الحروف مقارنة بلفظتي "raw" (شجار) و"feud"(نزاع). (م)

المقاطعات والأقاليم مثل هذه اللغة في الصحف الوطنية الكبرى فيحاكونها، بشكل سيئ في أغلب الحالات. وحتى بعض الصحف "الهرمة" التي تفتقد الدينامية، قد تسعى لجعل صورتها أكثر شبابا، أو مظهرها أكثر جاذبية، فتتبنى العناوين الضخمة، وبالتالي تحاكي بعض (إن لم نقل أسوأ) هذه المبالغات. وهكذا، أصيب تيار الصحافة برمته (بدرجات متفاوتة) بالتلوث، فإذا لم تتعرض صحف بلدك بعد لغزو ألفاظ لغة الجرائد السائدة التي لا تعرف سوى اللونين الأسود والأبيض، انتبه لها وحاول مقاومتها.

الدقة

يجب على الصحافة أن تكون العدو اللدود للأساليب التي تفتقد الدقة. فالقصص الإخبارية ينبغي أن تكتب للإجابة عن الأسئلة التي تدور في أذهان القراء وليس لإثارتها. أما الأسئلة التي يتوجب على المراسل محاولة الإجابة عنها، وبدقة، فهي:

- ماذا؟ (ماذا حدث؟)
- من؟ (من الفاعل وعلى من وقع الفعل: العمر، المظهر، المنصب/ الموقع، المؤهلات، وأي معلومات تتعلق بالخلفية)
- أين؟ (أين مكان الحدث؟)
- متى؟ (متى حدث: الساعة/ اليوم/ الشهر؟)
- كيف؟ (كيف حدث؟ ما هي التفسيرات؟)
- لماذا؟ (لماذا حدث؟)

النقاط المهمة الأخرى التي ينبغي الانتباه لها هي:

في الحالات كلها، ابتعد عن المجرد واستخدم المحدد

الكتابة غير المحددة غير مرغوبة. والتقارير الصحفية التي تتحدث عن "مؤسسات رسمية" دون تسميتها لا تفيد. استخدم كلمات محددة، سم الأشياء

بأسمائها، اكتب قوائم ووضح البنود. عليك أن تتوخى الحذر حين تدخل هذه التفاصيل إلى قصتك، لكن يجب أن تشملها. ولا تطلق على مبنى صفة "مرتفع" وحسب. كم يبلغ ارتفاعه؟ حدده بالأمتار، وحاول أن تقدم فكرة تفصيلية عنه.

استخدم الكميات المعلومة لا المجهولة

كثيرا ما يستخدم الكتاب كلمات مثل "فعلا" و"حقا" و"إلى حد كبير" و"جدا" للتعبير عن قيمة أو مقياس. تمسك بالدقة واستخدم القيم المعروفة.

انتبه عند استخدام العبارات التي تشير إلى عبارات الحد الأقصى والتفضيل

أصاب أحد كبار محرري التصحيح والإعداد الأمريكيين حين أشار إلى عدم رغبة المراسلين بذكر الأرقام الصريحة، وهي عادة تثير الغضب حقا. كأن يكتب أحدهم: "يستطيع العامل في الخدمة الاجتماعية في المعدل المتوسط التعامل مع عدد يصل إلى مائة حالة أو أكثر في الشهر". إذ يمكن للعدد الذي "يصل إلى" أن يكون أي رقم بين 0-100 ، وكلمة التفضيل "أكثر" أن تعني أي رقم بين 100 واللانهاية! مثل هذه الجمل لا تقول شيئا. على أية حال يمكنك تعديلها قليلا ("ليس من الأمور غير العادية أن يتعامل العاملون في الخدمة الاجتماعية مع مائة حالة في الشهر")، لكن حتى برغم محدودية معلوماتك فإن 100 حالة في الشهر قد تكون أمرا نادرا جدا. الحل الوحيد هنا هو أن يطلب المراسل مزيدا من المعلومات والمعطيات الدقيقة والمحددة.

لا تستخدم الصفات المبهمة

هنالك بعض العبارات الشائعة الاستخدام التي لا تنقل سوى أفكار مبهمة. "السيارة السريعة" مثال على ذلك. فهل هي من طراز "بورش" أم سيارة شرطة مستعملة، أم هي "فيراري"؟ يريد القراء أمثلة واقعية ومتعينة تحدد السلعة التي ينفقون نقودهم عليها، ومن المفضل أن يعرفوا الاسم التجاري والسعر. و"الرفاهية"؟ ماذا تعني؟ الجواب: إنها تختلف باختلاف الناس. يجب أن يكون

المعنى واحدا بالنسبة لجميع القراء. وهذا ينطبق أيضا على أوصاف الناس. "بدت ممشوقة القد وجذابة". ماذا يعني ذلك؟ لكن إذا قلت "شقراء طولها 180 سم" يصبح الوصف واضحا ومحددا للجميع. كذلك فإن عبارة "مثقفة وذكية" لا تعني شيئا، باستثناء كونها مؤشرا عاما على أن الفتاة لا تعاني من إعاقة عقلية! لكن إذا قلت إنها تحمل شهادة في العلوم السياسية، فإننا نعرف شيئا عنها.

تجنب اللغة "الملطفة"

تلك هي لغة الأشخاص الذين يتسترون على الواقع ويخفون الحقيقة. فهم يتحدثون مثلا عن رجل "رحل" حين يعنون بأنه توفي، ويشيرون إلى العلاقة الجنسية باعتبارها "علاقة حميمة". إنكلترا الفيكتورية شكلت مصدرا غنيا لمثل هذه العبارات (الإنكليزية) الملطفة ("في حالة الطبيعة" تعني العري، "أصغر غرفة في المنزل" تعني دورة المياه، "في وضع مثير للاهتمام" تعني الحمل). وحتى في أيامنا هذه، يبتكر الناس كلمات أو عبارات لوصف الأشياء والحالات التي لا تريحهم، مثل الموت أو الجنس أو عواطفهم الوجدانية الخاصة.

على الصحفيين عدم استخدام هذه الألفاظ والتعابير "الملطفة"، إلا في حالة السخرية. لكن ذلك لا يعني أن نذكر بوضوح صارخ كل تفاصيل العلاقة الجنسية أو الجرائم. فمعظم الصحف تتوجه لعموم القراء، الذين يضمون شرائح اجتماعية واسعة من مختلف الأذواق والمشارب والحساسيات. لذلك لا تكتب لا لأولئك الذين يُصدمون بسرعة، الملتزمين والمتمسكين بالأعراف الاجتماعية، ولا للمتعطشين لأخبار سفك الدماء.

حين تكتب عن حالات الموت العنيف، نتيجة الجرائم أو الحروب أو الحوادث، استخدم حكمك المنطقي حول المدى الذي تبلغه في عرض التفاصيل دون أن يشعر القارئ بالغثيان. الدقة لا يجب أن تعني بالضرورة التشفي أو تحقيق النجاح على حساب مصائب الآخرين، بل وصف الأشياء بتفاصيل كافية وذات صلة، مع احترام ومراعاة المشاعر. وينبغي أن يكون لديك سبب وجيه

لتقديم التفاصيل. في بعض الحالات، مثل حوادث تحطم الطائرات، لن يفاجئ القراء إذا عرفوا أن شدة الاصطدام أو الانفجار قد أدت إلى تشويه الجثث أو تقطيع أوصالها. عليك فقط أن توضح ما هو ضروري.

في الحالات الأخرى، مثل العمليات الحربية أو الإرهابية، يحتاج الناس لمعرفة فظاعات ما حدث. ويمكنك القيام بذلك بصورة أكثر فاعلية إذا استخدمت لغة محسوبة وحيادية ومتزنة. ها هو روبرت فيسك، حين كان مراسلا لصحيفة "التايمز" اللندنية، يصف مشاهداته حين ذهب لتغطية المذبحة التي تعرض لها الفلسطينيون في مخيمي صبرا وشاتيلا (أيلول/ سبتمبر 1982):

ما وجدناه داخل المخيمين في الساعة العاشرة من صبيحة اليوم التالي لم يكن استثنائيا بحيث يصعب وصفه أو تصديقه، رغم أن من الأسهل ربما روايته من جديد في قصة أو من خلال النثر البارد لتقرير طبي.

لكن ينبغي ذكر التفاصيل لأن الحقائق - في لبنان بالذات -ستتغير خلال الأسابيع القادمة وذلك مع تبادل المليشيات والجيوش والحكومات الاتهامات واللوم على الفظائع المهولة التي ارتكبت بحق الفلسطينيين المدنيين.

.. في زقاق على يميننا، وعلى مسافة تقل عن خمسين ياردة من المدخل، رقدت كومة من الجثث.

هنالك أكثر من عشر منها، شبان قيدت أيديهم وأرجلهم اختلطوا مع بعضهم بعضا في تبريح الموت. كلهم قتلوا من مسافة قريبة برصاصة في الوجنة اليمنى أو اليسرى، اخترقت اللحم حتى الأذن ودخلت الدماغ. بعضهم يحمل ندوبا قرمزية على الطرف الأيسر من العنق. أحدهم خُصي. أعينهم مفتوحة والذباب بدأ يتجمع حولهم. أصغرهم كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة.

على الجانب الآخر من الطريق، وعلى درب مليء بالحجارة، وجدنا جثث خمس نساء وعدد من الأطفال. النساء كن في منتصف العمر،

الجثث المغطاة تكدست فوق كومة من الحجارة. إحداهن تمددت على ظهرها، وقد تمزق ثوبها، وبرز رأس فتاة صغيرة من خلفها. الفتاة كانت ترتدي سروالا قصيرة، ولاح شعرها الأسود المجعد، بينما عبس وجهها وحدقت عيناها إلينا. كانت ميتة.

تقرير روبرت فيسك امتد إحدى عشر فقرة أخرى. لم يضف إلى أي منها أي تعليق، أو عبارة عاطفية. ومن المؤكد أن ذلك لم يكن نتيجة غياب مشاعره الوجدانية، لكنه يعرف أن تأثير القصة - وصدقها - سيضيعان حالما يدع هذه المشاعر تصيبها بعدواها.

الجنس

ظلت الصحف في شتى أرجاء العالم وطيلة سنين عديدة تستخدم لغة الأديرة والرهبنة لوصف كل ما له علاقة بالجنس. وعلى القارئ أن يحزر، بدلا من أن يعرف، الموصوف. فعبارات مثل "علاقة حميمة" و"اقتراح بذئ"، لا تفتقد الدقة فقط، بل غالبا ما تترك انطباعا لدى القارئ بأن ما حدث أسوأ بكثير من الواقع (إحدى أسخف الكلمات التي ظهرت في إحدى الصحف البريطانية هي "التدخل"، حيث عنونت: "فتاة تتعرض للطعن 65 مرة، لكن لم يتدخل بها القاتل".

ولكن استبدال مثل هذه اللغة الخجولة بأخرى أكثر وضوحا ليس ترخيصا لاستخدام اللغة الإباحية. إذ ينبغي تقديم التفاصيل للشرح والتفسير لا للإثارة وتهييج الغرائز. لسوف تجد أيضا أن اضطرارك لوصف الأحداث بطريقة مقبولة لأوسع شريحة من قرائك سينتج بصورة متكررة كتابة أصيلة ومحفزة. بن هيكت، المراسل الأمريكي في عشرينات القرن الماضي، كتب السطر الأخير لقصة في صحيفة "شيكاغو ديلي نيوز" حول كاهن كرر ممارس الجنس مع فتاة في قبو كنيسته - إلى أن تعثر ذات يوم بمدفأة تعمل على الغاز، فمات وهو في وحل الخطيئة: "انشغل بالحب فلم يشم سوى رائحة الفردوس، ولفظ أنفاسه الأخيرة، حيث تخلى عنها بينما ظل متشبثا بإحدى رعايا أبرشيته!".

الملاءمة

هي مواءمة أسلوب ونبرة وإيقاع وتطور القصة مع موضوعها. بالطبع، تتطلب الموضوعات جميعا تعاملا خاصا، لكن بعضها يحتاج معالجة أكثر حساسية من سواها. معظمها واضح جلي. شؤون الحياة والموت مثلا ينبغي التعامل معها بجدية (إلا إذا كنت تكتب عمودا وتخصصت في الذوق الرديء!). نقدم فيما يلي بعض الإرشادات التوجيهية للحالات المباشرة والواضحة:

القصص الإخبارية التي تدور حول الأحداث الدينامية والمشوقة يجب أن تكتب بإيقاع واقعي سريع

ينبغي أن تكون اللغة مكثفة، والبناء مختصر، والأفعال مباشرة تدل على الحركة، والجمل وجيزة، والصفات نادرة. لا يوجد سوى قلة قليلة من الأمثلة التي تتفوق في هذا السياق على وصف سيرغيي كورناكوف لحالة الاهتياج المسعور في سان بطرسبورغ، خلال الساعات التي أعقبت إعلان ألمانيا الحرب على روسيا في شهر آب/ أغسطس 1914. فهو نموذج يحتذى لأسلوب نقل الأحداث بسرعة تماثل تطوراتها المتلاحقة على أرض الواقع:

> ***حين وصلت ساحة سانت ايزاك وجدتها مكتظة بالناس. لابد أن الساعة قاربت التاسعة، إذ لم يحل الظلام بعد - الشفق المثير المثبط لليالي الشمالية أضاء المكان.***
>
> ***الواجهة الحجرية الرمادية لمبنى السفارة الألمانية الضخم قابلت المبنى الحجري الأحمر لكاتدرائية سانت ايزاك. حشود الجماهير المتدافعة كانت بانتظار حدث ما. كنت أرقب ضابط بحرية شابا تدفعه بعنف مجموعة من الوطنيين المتحمسين، عندما دفعني صوت طرق الفؤوس على المعدن إلى النظر إلى سطح مبنى السفارة، التي زينت بتماثيل ضخمة لمحاربين ألمان يمسكون بأعنة خيول تجر عربة. هنالك سارية تسند نسرا برونزيا مفرود الجناحين.***
>
> ***رأيت عدة رجال يضربون أقدام المحاربين الألمان - أثارت أولى الضربات في الغوغاء اهتياجا مسعورا؛ تماثيل الأبطال كانت جوفاء!***

"إنها فارغة! فأل حسن! خديعة ألمانية أخرى! حطموها! لا، دعوا الأحصنة واقفة!".

تعاظمت سرعة الفؤوس فترنح أحد المحاربين، ومال إلى الأمام، ثم هوى على الرصيف من ارتفاع مائة قدم. أطلقت الحشود زعقات مدوية، أفزعت سربا من الغربان عن قبة الكاتدرائية المذهبة. حان دور النسر؛ سقط الطائر من عل، وسرعان ما غرقت بقاياه المتناثرة في نهر مويكا القريب. لكن من الواضح أن تدمير الرموز لم يكن كافيا. فقد حطمت عصابة تشكلت على عجل بابا جانبيا يفضي إلى السفارة.

رأيت أضواء مصابيح ومشاعل تتحرك داخل المبنى، ثم تصعد بخفة إلى الطوابق العليا. انفتحت نافذة وبصقت لوحة ضخمة للقيصر على الحشد في الأسفل. وحين وصلت الأرض المرصوفة بالحجارة، بقي منها ما يكفي لإشعال حريق ضخم. تبعها "بيانو" جليل من خشب الورد، لينفجر كالقنبلة؛ وتردد صدى أنين الأوتار المقطوعة في الجو ثانية أو نحوها ثم تلاشى؛ كان العديد من الناس يحاولون أن يطغى صراخهم على هواجس رعبهم من المستقبل.

ليس ثمة كلمة واحدة غير ضرورية في هذا الوصف. فكل تفصيل مثبت بإحكام مع أقل عدد ممكن من الصفات. ومثل الكتابات الممتازة كلها، يتحدى النص التحرير والتعديل.

إذا كانت الأحداث في القصة كئيبة ومريعة، قاوم إغراء الإسهاب والتنميق

إغراء الإسهاب يتعاظم حين تكون مادتك غريبة واستثنائية. دع الأحداث ذاتها تمارس التأثير. ولا تحاول إضافة "الدراما" من خلال تشخيص الأحداث بأي طريقة كانت. إياك مثلا أن تقول أن القصة "عاطفية" أو "تثير القلق" أو "مرعبة". قدم القصة بدون مثل هذه الملاحظات ودع الحكم للقارئ.

إذا كانت القصة تدور حول عواطف وجدانية قوية، حاول التقليل من شأنها لا أن تضخمها

هذا لا يعني أن تغفل أي تفصيل، بل عليك أن تتجنب اللغة التي تتلهف على إحداث التأثير. فقصة تقطع نياط القلوب مثلا لا تؤثر إلا إذا كتبت بلغة بعيدة عن التكلف والتهويل والمبالغة.

احترس من الدعابة

لا ينبغي أن توجد محرمات تقيد الدعابة في السينما والمسرح والكتب. فلا مانع من أن يكون الموت والجنس والسرطان والجوع أهدافا مقبولة للنقد والهجوم. لكن الدعابة عند الكتابة حول هذه المواضيع العامة أمر يختلف عن محاولة السخرية من بلوى شخص معين في صحيفة اليوم التالي. إن التعامل بدون جدية مع قصة حول إصابة أو اكتئاب أو انزعاج لا يعتبر فكرة مناسبة، بل يدل على تبلد الإحساس وعدم احترام مشاعر الآخرين، كما أنه أسلوب عبثي ولا معنى له. وإذا تضمنت القصة عنصرا هزليا حقيقيا فلسوف يجده القراء ويضحكون بسببه على أية حال، لاسيما إذا رويته بوضوح وبأسلوب مباشر.

قد يتفق معظم الصحفيين على أن الكتابة الفكاهية الساخرة بالغة الصعوبة. لكن هذه الصعوبة لا تمنعهم من المحاولة. وفي الحقيقة فإن جزءا كبيرا من الكتابات الصحفية تعتبر فكاهية في المقصد، لا في الأثر، بحيث يقترب فشل الكتب الدراسية التي تعلم الصحافة في التعامل مع هذه المسألة من حد الإهمال الجنائي. فمجرد كلمتي "فكر مرتين" ستمثلان نصيحة ثمينة. لكن الأفضل أن تؤكد هذه الكتب إحدى الحقائق الأساسية للكتابة الساخرة، لأن ذلك سيوقف على - أقل تقدير في مرحلة كتابة المسودة - العديد من الجهود المضنية والمزعجة التي طبع نتاجها على صفحات الجرائد. وهذه الحقيقة هي: روح الفكاهة في الكتابة الصحفية الساخرة موهبة من الله لم يمنحها إلا لقلة قليلة منا.

الكتابة الفكاهية مثل الغناء المتناغم الذي لا ينشز، فإن تمكنت منه، لست بحاجة للتعلم؛ وإن كنت لا تستطيع، لن يساعدك التعليم مهما كان. والكوميديا المتنافرة، مثل الغناء النشاز، تعذب من يجربها وتحرجه. أو هكذا يجب أن تكون. لكن إن امتلكت الموهبة، سيكون الأمر سهلا نسبيا. ولسوف تميز أذنك بشكل غريزي الإيقاع الضروري للكتابة الفكاهية والكلمات الساخرة بحد ذاتها

تقريبا. ولن تحتاج لمن يعلمك بأن الدعابة تكون أكثر سخرية وهزلا حين لا يتبدى على وجه من يقدمها أي تأثير. ولسوف تبصر عينك الاحتمالات الهزلية الكامنة في عمق الحالات التي لا يرى الآخرون سوى سطحها، وسيترع عقلك بكل الإشارات المرجعية الثقافية والاجتماعية والتاريخية التي تكون الدعابة.

إذا كانت في ذهنك فكرة هزلية جيدة لمقالة مناسبة، اعمل عليها. ينبغي أن تكون مكتوبة بإحكام، وتفاجئ القارئ (لهذا لا تعتبر التورية فكاهة)، فذروة الدعابة تكمن عند نهاية الجملة الأخيرة. لا في الجملة ما قبل الأخيرة. وإذا أضفت إلى مقالة إطارا هيكليا ساخرا (أو معالجة هزلية) فيجب أن يكون قويا بما يكفي لحمل المقالة حتى النهاية. أما أسلم وأفضل الأساليب فهي أن تدع الفكاهة تتدفق بشكل طبيعي من قلب الأحداث ومن العبثية المتأصلة في الموضوع، بدلا من "دعابات" تقحمها من الخارج.

إذا راودتك الشكوك حول دعابة معينة أو جملة فكاهية مزعومة، اشطبهما. أما إذا تلاشت الشكوك كلها فتخيل أنك تقف على خشبة مسرح وتلقي مقالتك أمام جمهور من خمسمائة شخص. لا تنشر المقالة إلا إذا تأكدت من قدرتها على إثارة الضحك. وتذكر أن إضافة إشارة تعجب عند نهاية الجملة لن تحولها إلى جملة فكاهية ساخرة! بل ستجعل القارئ يعتقد بأنك هاو غرير!

الفعالية

اعتادت الصحف البريطانية والأمريكية، منذ القرن الماضي وحتى وقت قريب، أن تدفع للصحفيين أجورهم حسب عدد الأسطر. نظام الأجور هذا ولد جيلا من الصحفيين الذين اهتموا بالكم على حساب النوع. وهذا أنتج بدوره أسلوبا يعتمد على الإسهاب والتطويل كان من أهم سماته قدرة متبنيه وممثليه على استعمال أربع أو خمس كلمات في المقام الذي يمكن أن تكفي المعنى كلمة واحدة. ونتيجة لذلك، قدمت لغتهم المفخمة والمغالية (كرة القدم مثلا عرفت

باسم "الكرة الجلدية المراوغة") إسهاما دائما (وإن لم يكن مقصودا) في الفكاهة البريطانية. وكانت لغة الكتابة تفتقد الكفاءة والفعالية والدلالة إلى حد مشهود يمكن أن يثير الإعجاب!

لحسن الحظ، تقدم الأسلوب الصحفي (ونظام الأجور في معظم الحالات) إلى الأمام قليلا. الأجر حسب عدد الكلمات اعتبر منذ وقت طويل طريقة لرشوة الصحفيين لكي يكتبوا بأسلوب رديء. لكن بقي على قيد الحياة ما يكفي من ذرية الكتاب الذين كانوا يقبضون أجرهم تبعا لعدد الأسطر، لكي يقدموا بعض الملاحظات حول الكتابة التي تتميز بكفاءتها وفعاليتها ومردودها.

اجعل لكل عبارة وجملة دورا ومعنى في العمل

إما أن تنقل العبارات والجمل معلومات جديدة أو تساعد في تقدم الحدث وتطوره في القصة. فإن وجدت أي جزء منها لا يؤدي واحدة من هاتين المهميتين، اشطبه.

تجنب التراكيب اللغوية المسرفة

لكل لغة عبارات تستعمل في الكلام تعطي المتكلم وقتا لصياغة الفكرة التالية. في اللغة الإنكليزية، تشمل الأمثلة في هذا السياق: "من الحقائق المعروفة أن .. "؛ "في الواقع، ليس ثمة مجال للشك في حقيقة أن.. "؛ "يمكن أيضا ملاحظة أن.. ". تجنب مثل هذه العبارات، وتفادى أيضا التراكيب اللغوية الكسولة التي تبطئ تتابع فقرات وفصول القصة. فلغة الصحافة، لا سيما في التقارير الصحفية الحديثة، يجب أن تكون سريعة الإيقاع. ولا يمكن أن تتصف بهذه السمة إذا ركبت الجمل بالصيغة السابقة. "إن العامل الجوهري المطلوب في معظم الكتابات الصحفية - مقالات، رياضة، سيرة شخصية، وخصوصا التقرير الإخباري - هو سرعة الإيقاع التي تتكشف عبرها فصول القصة وتتطور أحداثها".

اكتب بدون أن تنظر إلى ملاحظاتك

لسوف تكتب بسرعة أكبر وفعالية أفضل إن توقفت عن مراجعة ملاحظاتك المدونة كل خمس ثوان! بل لا ينبغي عليك البدء بالكتابة قبل أن تتوضح القصة تماما في ذهنك، وإذا كتبت بدون مراجعة الملاحظات فستتناول العناصر الجوهرية فقط. أما التفاصيل، وتهجئة الأسماء، والأرقام، فيمكنك التحقق منها فيما بعد. ومن المؤكد - تقريبا - أنك ستضيف فكرة أو اثنتين نتيجة لذلك، لكن الهيكل الأساسي (المسودة الرئيسة) سيكتب بشكل أكثر فعالية وكفاءة إذا استخدمت أفكارك بدلا من نسخ عدد كبير من الملاحظات من دفترك.

لا تتردد أبدا في البحث عن الملاحظات المعروفة والسخيفة وحذفها

حتى أكثر الكتاب تمرسا وخبرة يجدون أنفسهم يكررون ملاحظات وتعليقات معروفة ومبتذلة. وهذه تكون غالبا جمل وصل تربط بين الفقرات التي كافحت لكتابتها، وفي محاولتك المتلهفة على وصلها لتشكل كلا واحدا، تجد نفسك تكتب مجرد هراء. قبل بضعة أسابيع فقط حذفت من قصة إخبارية كنت أكتبها عبارة "وبالطبع، فإن حياة راقصة البالية لا تنحصر فقط في سماع تصفيق الإعجاب.. ". فبالله عليك، من يظن أنها كذلك؟!! غالبا ما تجد أنك لست بحاجة إلى جمل الوصل هذه. وبمقدور معظم القراء تفهم التغير الطفيف في الاتجاه إذا ترافق مع تغير الفقرة.

لا تستخدم صيغة المبني للمجهول

الناس يقولون ويعلنون أشياء، ومن الأفضل كتابتها بشكل مباشر. ولذلك فإن عبارة: "سوف يفتتح مطار هيثرو مدرجا جديدا عام.. " تظل أفضل من عبارة: "تأكد لنا من مصدر مطلع أن مدرجا جديدا سوف يفتتح في مطار هيثرو عام.. ". بعض الأفعال مثل سأل، وأعطى، وطلب، غالبا ما تستخدم

بصيغة المبني للمجهول، مثل: "الطلب أتى حين سئل يلتسين.." (من الأفضل القول "طلب يلتسين"..). الفعل المبني للمعلوم ليس أكثر كفاءة في التعبير فقط، بل هو أكثر فعالية أيضا.

استخدم الدوائر السوداء الصغيرة (•) والقوائم لتعداد النقاط المهمة في القصة

قد لا يكون هذا الأسلوب مناسبا، لكنه يفيد حين يكون لديك لائحة طويلة بالنقاط المهمة. فبدلا من كتابة عدة فقرات مطولة مثلا لوصف التأثيرات الناجمة عن تخفيض الإنفاق الحكومي على قطاع النقل، يمكنك تعدادها على شكل بنود. لكن انتبه لتلك الحالة التي تجد نفسك فيها مضطرا لذكر معظم النقاط مجددا من أجل بعض التفاصيل. أضف التفاصيل إلى بنود القائمة.

تجنب المقيدات النحوية الخالية من المعنى

في اللغة الإنكليزية، تعد عبارات مثل "خطر جدي"، "شائعات غير مؤكدة"، و"تحذير لا مبرر له"، لغوا فارغا تماما، إذا فكرت فيها لحظة. فما هو الخطر "غير الجدي"؟ وإذا كانت الشائعات مؤكدة فلن تكون شائعات، بل حقائق، معروف مصدرها. بمقدورنا حذف النصف الآخر من كل هذه العبارات الآلية، إلى جانب المقيدات النحوية الأخرى، مثل "فريد إلى حد ما"، فإما أن يكون الشيء فريدا، أي وحيدا في نوعه، أو لا، وفي هذه الحالة لن يعود فريدا.

تجنب الحشو

الحشو هو تكرار الكلمات التي تفيد المعنى ذاته.

لا تستخدم الاقتباسات لإعادة ذكر النقاط الواردة في الكلام المنقول

وهذه عادة شائعة في الكتابة تؤدي إلى الإسهاب والتطويل، مثل: "أنكرت الوزارة هذه المزاعم، وقال ناطق باسمها -نحن نرفض هذه المزاعم-" اكتب إحدى العبارتين، ويفضل الأولى.

تعلم الكلمات التي يمكن استعمالها بدلا من العبارات الطويلة

على سبيل المثال: "الموضوع الذي أشير إليه" يعادل اسم الإشارة "هذا".

أخيراً، من التمارين المفيدة أن تراجع بعض مقالاتك المنشورة مؤخرا، ثم تستخدم القلم الأحمر لتخفيض عدد الكلمات المستخدمة، دون حذف أي من الحقائق الجوهرية. لسوف تفاجئ بمدى الإسهاب والتطويل في أسلوبك. لهذا السبب، فإن من التجارب المفيدة جدا للكاتب الصحفي العمل فترة كمحرر إعداد وتدقيق، ولا شيء يعادل كتابة قصة إخبارية معقدة من 250 كلمة في تعليمك الأسلوب الكفء والفعال والبليغ في الكتابة.

التنقيح

يجب أن يكون الكاتب أقسى وأعنف نقاد أعماله. من المهم أن تراجع ما كتبت، بحثا عن الأخطاء والعيوب، وتنقحها وتصححها إن لم تشعر بالرضى. في العادة، وبحلول الوقت الذي تقع فيه قصتك تحت بصر شخص آخر، يكون الأوان قد فات - إما لإدخال تحسينات عليها، أو لإنقاذ سمعتك. بعض الكتاب يفضلون كتابة نسخة عن القصة برمتها قبل إخضاعها للتنقيح - وقد يكون جذريا. بعضهم الآخر، ربما أولئك الذي يعلمون بشكل أكثر وضوحا ما يريدون، يفضلون تنقيحها فقرة فقرة. الأسلوب لا يهم، المهم أن يكون التنقيح شاملا، لا مجرد بحث سطحي عن الأخطاء الإملائية.

جورج اورويل، مؤلف "مزرعة الحيوانات" و "1984"، الذي اشتهرت كتاباته بالوضوح، يعتقد بأن هناك أربعة أسئلة ينبغي على كل كاتب طرحها عند كتابة أي جملة. يبدو ذلك عبئا مضنيا، وسيكون كذلك فعلا إن لم تصبح هذه الأسئلة آلية تطرح في اللاوعي بعد مدة. الأسئلة هي:

- ما الذي أحاول قوله؟
- ما هي الكلمات التي تعبر عنه؟

✍ ما هي الصورة (الذهنية) أو الأسلوب التعبيري الذي يجعلها أكثر وضوحا؟
✍ هل الصورة مبتكرة و"طازجة" بما يكفي لتحدث أثرا؟

ثم يضيف، من خلال الأفكار اللاحقة المهمة، سؤالين آخرين:
✍ هل أستطيع التعبير بأسلوب أكثر بساطة؟
✍ هل كتبت فكرة بشعة يمكن تجنبها؟

هؤلاء الذين يكتبون بانتظام سرعان ما يتعلمون طرح هذه الأسئلة حول كتاباتهم دون أن يبذلوا مجهودا واعيا يفوق ذلك الذي يتطلبه تحريك أعينهم فوق صفحة كتاب. لكن، أقترح سؤالين آخرين من الشائع طرحهما حول المسودة:

✍ هل هناك أية تفاصيل لم يتم شرحها، هل تم تفسير كل شيء بالشكل الصحيح؟
✍ هل يتدفق الأسلوب بسلاسة؟

إذا وجدت كل شيء على ما يرام، اترك مقالتك على حالها، وقاوم إغراء إضافة بعض العبارات الزاهية، كأنما أنت طاه يلقي المزيد من الزبيب في قالب "الكاتو". أما إذا لم تعجبك، فلربما تحتاج إلى أكثر من مجرد لمسة خفيفة لتصحيحها. علامات الترقيم، مثلا، ليست أسرع الطرق لإعادة الحياة إلى جمل وعبارات تحتضر. أعد الكتابة، والتركيب، والبناء، إلى أن ترضى عن عملك.

بعد ذلك، اختصر ما كتبت. هل هناك كلمات، أو عبارات، أو جمل تبطئ سرعة الإيقاع وتقطع سلاسة الأسلوب؟ نادرا ما قرأت مقالة لا يمكن تحسينها باختصارها. الاختصار، مثل شد "البراغي والعزقات" في قطعة أثاث. إن تركتها على حالها، ستصبح مهلهلة ومختلة ومزعزعة. انتبه على وجه الخصوص لما يبدو جيدا ومحكما ومعبرا عندما تكتبه. ومثلما قال صمويل جونسون ذات مرة: "أعد قراءة ما كتبت، وحين تجد فقرة تظن أنها ممتازة، اشطبها". فمثل هذه الفقرات لا تكون فعلا كما حسبتها في البداية.

متعة الكتابة

يمكن للصحفيين الذين يفتقدون الخبرة والتجربة أن يتعرضوا أحيانا لطغيان المشكلات الناتجة عن باعث كتابة ما هو واضح ومثير ويرغب الناس بقراءته. كما أن الكتاب الأكثر تجربة وتمرسا لا يتمتعون بمناعة تقي من هذا الشعور المحبط أيضا، وحين تسمعهم يتحدثون عن معاناة آلام الكتابة ستظن أنك لن تجد شخصا عاقلا يرغب بالكتابة إلا تحت تهديد المسدس! الصحفي الأمريكي الكبير المتخصص بالشؤون الرياضية، ريد سميث، قال ذات مرة: "الكتابة ليست صعبة. كل ما عليك أن تجلس أمام الآلة الكاتبة وتفتح وريدا من أوردتك". ورد صحفي أمريكي آخر (غور فيدال)، بالجواب الحاسم، حين كتب يقول: "عندما أسمع عن انقطاع الإلهام، عن هذا الكاتب أو ذاك، أقول: سحقا! توقف عن الكتابة".

من المؤكد أن الكتابة تتطلب جهدا وعرقا في بعض الأحيان. وهناك بالطبع قصص تبدو مربكة ومشوشة ومختلطة إلى أن تقضي ساعات عديدة تصارعها لتأخذ شكلا مقبولا، وهنالك أوقات تعاني فيها من ألم مبرح حين يقترب الموعد المضروب ولم تكمل سوى نصف مقالتك، ولم تترتب أفكار النصف الآخر. لكن متعة اقتناص حدث وتثبيته على الورق بالكلمات، كلماتك أنت، متعة هائلة. كذلك الإثارة التي تترع كيانك حين تبدأ كتابة مقالة وليس لديك سوى خلطة منوعة من المعلومات المتباينة، لتجد نمطا ناظما لها، وأفكارا جديدة حولها مع كتابتها.

"عليك أن تكتب، وتمزق أو تحرق الكثير من المادة التي جمعتها قبل أن تشعر بالرضى. ولربما تبدأ الآن وتنجز ما هو ضروري. لأنني أؤمن بأن الكمية في نهاية المطاف سوف تؤدي إلى النوعية".

راي برادبري.